أحاديث اجتماعية وثقافية

الدكتور ابراهيم مدكور

دار الشروق

الطبعة الأولى

١٤٠١ ـ ١٩٨١

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني هاتف : ٧٥٤٣١٤ برقيا : شروق القاهرة ـ تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ برقيا : داشروق ـ تلكس : SHOROK 20175 LE

بيـــان

هذه سلسلة من ثلاث حلقات أذيعت فى الأعوام الثلاثة الأخيرة ، ولم أشأ أن أضيف إليها إذاعات سابقة ، لأنها تدور حول بعض المشاكل الاجتماعية والقضايا الفكرية المعاصرة ، وتنصب على موضوعات يتصل بعضها ببعض . ولا أظن أن هذه الموضوعات قد استوفت بحثًا ، أو أنا قد انتهينا فيها إلى حلول عملية فاصلة ، ولا يزال مجال القول فيها ذا سعة وعسى أن يكون فى نشرها ما يوجه الأنظار إليها ، لاسيما ومستمعوها فى الماضى محدودون مهما بلغوا . .

الحلقة الأولى

الشـــــباب

١ ـ الشباب

يطيب لنا الحديث عن الشباب دائمًا ، لأنهم زهرة الحياة وعدة المستقبل . وقد قدر لى أن أعيش معهم طويلاً ، عرفتهم شابًّا فالتقت لغتى بلغتهم واختلطت أحاسيسى بأحاسيسهم ، والشاب أقرب ما يكون إلى أخيه الشاب . وشاءت الصدف أن أعيش مع شبان كثيرين من أهلى وغير أهلى ، من وطنى وغير وطنى ، والشباب لحمة قد تزيد أحيانًا على لحمة القرابة والنسب .

وعرفتهم كهلاً وشيخًا فى أبنائى وتلاميذى ، وأفضل أن أسمى الأخيرين أصدقائى ، وما أجمل صلة التلميذ بأستاذه حين تتحول إلى صداقة ، يأنس فيها التلميذ إلى الأستاذ ، فيفضى إليه بكل ما فى نفسه ، ويستعين به فى قضاء حوائجه وحل مشاكله . ويرفع الأستاذ الكلفة ، فيعامل تلميذه معاملة الند للند ، ويسمو بمعنوياته ، ويغرس فى نفسه دعائم الرجولة الحقة . وكثيرًا ما فاتتنا هذه الصداقات فى تعليمنا الجامعى ،

وما أحوجنا إليها . فاتتنا تحت ضغط العمل وأعباء الحياة ، ضغط على الطلبة والأساتذة على حد سواء . وفاتتنا تحت تأثير العدد وكثرته ، وهذه مشكلة تعليمية كبرى لابد أن نجد لها حلا ، إن فى التعليم العام أو فى التعليم الجامعى ، وإلا كتب على تعليمنا أن يبقى آليا لا روح فيه ، وماديا لا قلب له .

والصداقة التى أنشدها ، هى صداقة الطالب الجامعى لأستاذه ، صداقة تغذى العقل والروح معًا ، وتقدم نماذج حية لسلوك يحتذى ومثل أعلى يسار على نهجه ، والأستاذ الجامعى خير ما نرجو لهذا السلوك ، وأولى الناس بضرب هذا المثل . أريد باختصار أن تكون علاقة الطالب بأستاذه شبيهة بعلاقة الصوفى بشيخه ، يرى فيه قدوته وإمامه ، ويقرب منه قربًا تنفذ فيه أشعته إلى نفسه ، وتتصل روحه بروحه . وأخشى ما أخشاه أن يكون نصيب الحياة الروحية فى تربيتنا وتعليمنا فى تضاؤل مستمر ، وهذه ناحية يجدر بنا أن نرعاها وأن نعنى بها عناية خاصة . ولاأزال أذكر كلمة قالها عاطف بركات يومًا لطلابه فى مدرسة القضاء الشرعى : «كم أود أن أكون بينكم بمثابة الشيخ من مريديه ، وألا يقل نصيبى فى تربية أرواحكم عنه فى تربية عقولكم» .

ويمر الشباب الآن بأزمة حادة يتطاير شررها يمينًا وشمالاً . وتنتقل عدواها شرقًا وغربًا . وليس شبابنا بمأمن منها . وعدوى الأفكار والعادات ليست أقل من عدوى الأزياء «والمودات» . ونحن مولعون بتقليد الغرب فى كل شىء . ووسائل عدواه كثيرة . وسرعتها خاطفة . هى من سرعة النفاثات واللاسلكيات . وكثيرًا ما تنتقل العدوى دون أن نحس بها ، ثم تتمكن من نفوسنا فلا نعرف كيف نخلص منها .

ومن أخص خصائص أزمة الشباب الحاضرة قلق وحيرة . وعدم شعور بالرضا ، واستهانة بالقيم . وضرب من اللامبالاة الزائدة . فالشاب اليوم قلق فى حركاته وسكناته . فى صلاته وعلاقاته ، وكثيرًا ما ينزع إلى التغيير ولو إلى أسوأ . وليس فى القلق راحة ولا رضا ، فهو غير راض عن حاضره وغير مطمئن إلى مستقبله . واستهانته بالقيم ملحوظة فى قوله وعمله ، فلا يعتد بعرف أو تقليد ، ولا يحترم سنًّا أو تجربة . وهذه الاستهانة تؤدى إلى عدم المبالاة والتقصير فى الواجب الخاص والعام .

* * *

وكم نتمنى أن تكون هذه الأزمة عارضة لا تلبث أن

تزول ، وأن تكون هذه الأمراض طارئة سنتخلص منها بعد قليل . ولكن واجبنا أن نبحث عن أسبابها ، وأن نبذل الجهد فى معالجتها ودرء خطرها . هى أجدر مشاكلنا التربوية والتعليمية بالعلاج ، وأمسها حاجة إلى التعهد والرعاية .

وليس العلاج مجرد قول يلقى ، أو نقد يوجه ، بل هو أساسًا تنشئة الشباب وتربيته ، وإن لم يتعهد منذ البداية عزّ تداركه فيما بعد .

وينشأ ناشئ الفتيان فينا
على ما كان عوده أبوه

وأولى بالأب أن يتخذ من ابنه الشاب زميلاً ، وبالأم أن تنزل ابنتها الشابة منزلة الصديقة . ومن اليسير أن نحكم على الشاب بزملائه وأقرانه ، وشبيه الشيء منجذب إليه ، وما أجدرنا أن نتعرف هؤلاء الزملاء ، وأن نقف على حقيقتهم فى غير ما تلصص ولا جاسوسية . ومن الخير أن يعالج العيب فى حينه ، وإلا تضخم ، وربما عز علاجه . وعلى المجتمعات الصغيرة من أسرة وناد فى ذلك عبء هام ، إلى جانب أعباء المجتمع الكبير ، وكل تلك نواح سنعرضها بشيء من التفصيل فى أحاديثنا المقبلة .

٢ ـ الشباب والأسرة

الأسرة مجتمع صغير ، وفى صلاحه صلاح المجتمع الكبير . وللأسرة فى تربية أبنائها وظائف إن أديت على وجهها كانت لها ثمار طيبة . ونتساءل اليوم : هل تؤدى هذه الوظائف كما ينبغى ؟ وهل تقوم الأسرة برسالتها ؟ هل ترعى أبناءها رعاية كاملة ؟ إنى أدع للسادة المستمعين الإجابة عن هذه الأسئلة ، وأكتفى بأن أشير إلى أنه قد يكون فى ظروف حضارتنا الحاضرة ما يحول دون هذه الرعاية ، فالأبوان العاملان قد لا يجدان وقتًا كافيًا يمنحانه لصغار أبنائهما ، فضلاً عن كبارهم ، والاشتراك فى الأندية والجمعيات قد يصرف الأب والأم عن أحب الناس إليهما .

وأخشى ما أخشاه أن نكون سائرين فى الطريق الذى سارت فيه الأسرة الغربية ، طريق يعانى فيه الأبناء ما يعانون . وأتساءل بحق : هل لا تزال فى الغرب أسرة ؟ لاشك فى أنها

تلاشت ، وتوشك أن تنهار . فقرابة الأعمام والأخوال أصبحت وكأن لا وجود لها ، وقرابة الأخ والأخت لا تذكر إلا فى مناسبات خاصة . واقتصرت الأسرة الغربية على الأب والأم وأولادهما ، على أنها فى وضعها هذا ليست واضحة التماسك ولا سليمة البنيان ، وكثيرًا ما يكون الأب فى واد والأم فى واد ، والأبناء حيارى بين هذا وذاك . وإذا ما بلغوا الخامسة عشرة أعلنوا استقلالهم ، ونسوا أحيانًا أن لهم آباء وأمهات . تلك هى المحنة التى يعانى منها المجتمع الغربى ، ولا يدرى كيف يخرج منها ، ولاشك فى أن آثارها سيئة على الأطفال والشبان .

فنى أسرة كهذه يعز علينا أن نتحدث عن روح وقلب ، أو عن امتزاج وتعاطف ، ومجال الإشراف محدود ، وسبل الرعاية ناقصة . وأعضاء هذه الأسرة أشبه ما يكون بمجرد شركاء فى المسكن والمأكل ، وربما أكلوا فرادى لا يلتقون على طعام أو شراب ، وقد لا يرى بعضهم بعضا لعدة أيام . للأب عمله وناديه وأصدقاؤه واجتماعاته ، ولا مناص من أن يضيع واجب الأبوة فى ثنايا ذلك . وقد لا تختلف الأم عن هذا كثيرًا ، ويضيع واجب الأسرة كلها نحو أبنائها . وعبثًا نحاول إن شئنا أن نحل محل ذلك المرضعات والمرافقات ، أو بيوت

الطفولة والشباب ، فكل تلك حلول مصطنعة لا يمكن أن تغنى عن الحلول الطبيعية ، فى وسعها أن تساعد. ولكنها لا يمكن أن تحل محل قلب الأم وعين الأب .. على أنا أصبحنا ولا سبيل لنا إلى هذه المرضعات والمرافقات .

وقديمًا قالوا : لاعب ولدك سبعا ، وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعا ، ثم اجعل حبله على غاربه . ولا سبيل لأن نلاعب أطفال اليوم سبعا بحال ، فنحن ندفع بهم إلى رياض الأطفال فى سن الثالثة ، ولو استطعنا لأرسلناهم قبلها ، ولاشك أنا نحاول بهذا أن نخلص من بعض أعبائهم . وأصبحت مرحلة الطفولة فى الحقيقة قصيرة جدًّا . وتحولت إلى مرحلة جدّ ومسئولية عن واجبات تؤدى ، وامتحانات نقل وقبول ، وما أحوجها فى وضعها هذا أن تنال حظًّا وافرًا من عطف الآباء وحنان الأمهات .

وما انتزعناه من سنى اللعب أضفناه إلى سنى التأديب ، وأصبحنا نؤدب أولادنا عشرًا أو يزيد ، وليتنا نتولى شيئًا من تأديبهم بأنفسنا ، ولكنا وكلناه كله تقريبًا لغيرنا . ومع تقديرى لشأن المدرسة أحب أن ألاحظ أن لغة الأب والأم تختلف عن لغة المعلم والمعلمة ، وما أحوجنا فى مرحلة الطفولة الغضة إلى

كثير من الحنان والمحبة ، وهذه مهمة البيت قبل أن تكون مهمة المدرسة .

أما مدة المصاحبة - وهى التى تعنى الشباب كثيرًا - فقد انمحت من حساب الأسرة العصرية . فللشباب أصدقاؤه ، ولا سبيل لأن يتخذ أباه واحدًا منهم يأنس إليه ، ويفضى إليه بمتاعبه ومشاكله . وللشابة صديقاتها - وقليل من الأمهات من يجعل ابنته الشابة صديقة له تأمنه على سرها ، وتبوح له بما يجول بخاطرها . وما بين الرابعة عشرة والعشرين مرحلة حرجة فى سن الشبان والشابات - ومن ألزم الأشياء فيها الرعاية الحانية والنصح الرقيق .

* * *

إن على الأسرة واجبات نحو الشباب ، ومن العسير أن يحل غيرها محلها فيها . ولها رسالة لابد أن تؤديها ، ولئن قصرت فيها فإنما تقصر فى حق نفسها أولاً ، ثم فى حق الله والوطن ثانيًا . وأنا لا أنكر أن الحياة أصبحت تلقى على الأبوين أعباء لا سبيل لهما للتخلص منها ، فالأب يعمل من جانبه - والأم

تعمل من جانبها ، وقل أن يجمع بينهما عمل واحد . وحالت النزعة الاستقلالية والمساكن المنعزلة دون الجد والجدّة - إن وُجدا ، أن يقوما ببعض الواجب نحو صغار الأبناء . ولم تتوفر لدينا بعد دور الحضانة الملائمة التى تستطيع أن تسد بعض هذا النقص ـ وما أحوجنا أن نتوسع فيها - وأن نحكم الإشراف عليها ، فقد أصبحت ضرورة لازمة للأم العاملة ـ على أنه ليس فى وسعها أن تحل تمامًا محل رعاية الآباء والأمهات - ومن الخطأ أن يركن إليها وحدها ، كما كان يُصنَع من قبل مع المرافقات والمرضعات .

إن حياتنا الأسرية عامة فى تطور ملحوظ - وعلينا أن نسايره ونتعهده ، وإلا فقدت الأسرة وظيفتها - وعجزت عن أداء أهم واجباتها - وعلى الأب والأم أن يذكرا دائمًا أن عملهما لا يشفع لهما مطلقًا فى أى تقصير نحو تربية أبنائهما - وفى وسعهما أن يلائما بين العمل وواجبات الأبوة والأمومة - وحذار أن نقع فيما وقعت فيه الأسرة الغربية .

٣ ـ الشباب والمدرسة

المدرسة ركن هام من أركان المجتمع ، هى مبعث النور والعرفان ، ووسيلة كبرى من وسائل إعداد النشء لمواجهة أعباء الحياة ، وبها يقاس الرقى والمدنية .

وكانت بالأمس مقصورة على عدد من التلاميذ الذين أتيحت لهم فرصة التعلم ، ومكنتهم ظروفهم المالية من تحمل نفقاته . أما اليوم فقد أصبح التعليم العام واجبًا من واجبات الدولة ، تضطلع بأعبائه كلها ، وتفرضه على أبناء الشعب جميعًا ، وتحاول نشره ما استطاعت . وهناك أمم استكملت وسائل تعليم النشء منذ زمن بعيد ، وليس فيها أمى واحد ، ولا طفل لا يجد له مكانًا فى معاهد التعليم . وهناك أمم أخرى لا تزال على الطريق ، وتحاول أن تستوعب مدارسها أبناءها جميعًا ، وأن توفر لهم المكان الملائم ، والمعلم الصالح ، والكتاب النافع .

ولاشك فى أن التعليم فى مقدمة الخدمات العامة التى تضطلع بها الدولة ، وكل ما ينفق عليه بناء وتكوين ـ وكسب لثروة بشرية هى ذخيرة الأمة وعدتها . وكل عائق فى سبيل نشره جناية على المجتمع ، وعدوان على مستقبله ، ووقوف فى طريق تقدمه ، ونجاح الأمم اليوم بقدر ما توافر لها من علم ومعرفة . وتقوم حضارتنا الحاضرة فى مظاهرها المختلفة على العلم والتكنولوجيا ، ولابد لنا أن نتسلح لها بسلاح ملائم . وكنا بالأمس نقنع بتعلم القراءة والكتابة ، وبعض مبادئ الحساب ، أما اليوم فتحتاج تربية الشعب إلى ثقافة أوسع ومادة أغزر . ولا نزال نذكر ما كان للشهادة الابتدائية من شأن بيننا فى عالم الوظائف والألقاب ، وها هى ذه قد اندثرت ، وأصبحت فى خبر كان . وتلتها الشهادة الإعدادية ، وهى فى سوق الوظائف العامة بين الحياة والموت ، ولا تزيد عن مرحلة انتقالية من مراحل التعليم العام .

وإذا كنا نتحدث عن المدرسة ـ فإنا نقصد بها معاهد التعليم على اختلافها ، بين ابتدائية ومتوسطة ـ ثانوية وعالية ـ علمية وفنية ـ نظرية وعملية . وفى المدرسة يقضى

الناشئ قسطًا غير قليل من زهرة حياته ، لا يقل عن ست سنوات هى مدة الالزام ، وكم نتمنى أن تصعد هذه المدة إلى عشر سنين ، وأن تنال القرية حظها من العناية والتعليم ما تنال المدينة على السواء. وقد يمتد التعليم فى المرحلتين الثانوية والعالية إلى ثمان عشرة سنة ، وفى عشر سنوات أو ثمان عشره إن أحسن استخدامها ، نستطيع أن نكوِّن جيل المستقبل ، وأن نعده إعدادًا سليمًا ، وهذا ما لم نوفق إليه بعد. فتخرج المدرسة الابتدائية أحيانًا شبه أميين ، لا يلبثون أن ينسوا القراءة والكتابة بعد عام أو عامين. ويضيق صدر المدرسة الإعدادية عن عدد غير قليل من التلاميذ. وتشكو المدرسة الثانوية من ازدحام الفصول وكثرة العدد الطاغية ، وتزداد مشكلة العدد تعقيدًا فى التعليم العالى والجامعى.

وتضطلع المدرسة بأعباء شتى ، اصطلحنا على أن نسميها التربية والتعليم ، فعليها واجب تربوى إن قصّرت فيه ضاع جانب كبير من مهمتها. عليها أن تربى الجسم والخلق ، كما تغذى العقل والفكر ، فتعنى بالتربية البدنية ، وترعى صحة التلاميذ. وينبغى أن تزيد هذه العناية بتقدم سنّ الطفل ، فيعد لكل مدرسة ملعبها ، وتنظم لقاءات رياضية بين أبناء

المدارس المختلفة . وتعتبر التربية البدنية باختصار جزءًا أساسيًّا من رسالة المدرسة ومهمتها . ولا بأس من وجبة غذاء كافية . وبخاصة في البيئات التي لا تستكمل فيها وسائل التغذية . ونتساءل حقًّا هل تحظى مدارسنا الابتدائية والثانوية بهذه التربية البدنية حظوة كاملة ؟ أخشى أن يكون ضغط الأعداد قد قضى على الملاعب في كثير من المدارس . وأن يكون تلاحق الدروس قد طغى على صحة الأبدان . ومن بين مدارسنا الثانوية ما كان له في الماضي نشاط رياضي ملحوظ .

وليست التربية الخلقية والروحية بأحسن حظًّا من التربية البدنية . وتكاد تهملها المدرسة . ولا تعدها من رسالتها . ونتساءل هنا أيضًا هل ترعى المدرسة الابتدائية جانب الخلق والسلوك بقدر ما كان يرعاه سيدنا في «كتاب» القرية ؟ وهل تربي فيها العواطف الكريمة والإحساسات الصادقة تربية كافية ؟ إن مما يؤسف له أن العناية بهذه العواطف في ضعف متزايد . وتقل كلما تقدمت سن الناشئ . فهي في المدرسة الثانوية أضعف منها في المدرسة الابتدائية . ولا تكاد تلحظ في الدراسة العالية . ولا سبيل إليها إلا بتربية دينية ، وقدوة حسنة . وإشراف مباشر . ولن يتحقق ذلك على وجه أكمل

إلا إن عادت الفصول المدرسية إلى أعدادها المقبولة ، وبخاصة فى مراحل التعليم الأولى . وحين ذاك يستطيع المعلم أن يتصل بتلاميذه اتصالاً أقرب وأوثق .

ولن أقف طويلاً عند مهمة المدرسة التعليمية . فالحديث عنها طويل . والشكوى منها تتردد دون انقطاع ، وقصورها فى نمو مطرد . ولا أظن أن أحدًا ينكر أن غالبية الحاصلين على شهادة الدراسة الثانوية اليوم فى مستوى أدنى مما كان عليه أقرانهم فى الربع الثانى من هذا القرن . ومن الظلم أن يلقى وزر هذا على المعلم وحده . بل للبرامج ، ومواد الدراسة ، والكتب ، وأبنية المدارس وفصولها ، وعدد التلاميذ فى كل فصل ، ونقص المعامل والأجهزة والآلات . لذلك كله شأن كبير فى ضعف التعليم العام فى مراحله المختلفة ، وعجزه عن الوفاء بالإعداد المنشود . والمسئولون عن التعليم يدركون ذلك تمام الإدراك . ويرغبون فى تدارك النقص ورفع المستوى ، وكلنا رجاء أن يوفقوا إلى ما ينشدون .

* * *

وعندنا أن أزمة الشباب التى نشكو منها اليوم ترجع بوجه خاص إلى نقص التربية الخلقية والروحية . ولاشك فى أن الأسرة والمدرسة مقصرتان فى أداء هذا الواجب تقصيرًا ملحوظًا . ولن يستقيم البناء إلا إذا صلح أساسه . والمجتمع الكبير ثمرة وصدى لهذه المجتمعات الصغيرة . ونتساءل : هل فى وسعه أن يتدارك هذا التقصير؟ هذا ما سنعالجه فى الحديث المقبل .

٤ ـ الشباب والمجتمع

فى كل مجتمع قطاعاته المختلفة من شباب وكهول وشيوخ . وفيه طوائفه المتميزة من زراع وصناع وتجار . والمجتمع السليم هو الذى يعرف كيف يلائم بين هذه الطوائف والجماعات . فيحدد واجباتها . ويحترم حقوقها . ويخلق منها وحدة كاملة هى وحدة الأمة والوطن . ودون أن أعرض لمختلف هذه النواحى أكتفى بأن أشير إلى أنا كنا إلى عهد غير

بعيد لا نقيم وزنًا لعالم الطفولة ، ولا نلحظ ما يتطلبه عالم الشباب ، مع أنهما الحجر الأساسى فى بناء الأمة . وأذكر أنى دعوت يومًا فى توزيع ميزانية الخدمات العامة إلى أن يكون للطفولة والشباب فيها الحظ الأوفى .

ولاشك فى أنا أخذنا نعنى بعالم الطفولة ، وإن كانت هذه العناية لم تنتشر فى الريف بعد ، وأطفاله يكوّنون الغالبية العظمى من أبناء الشعب . فأعددنا فى المدن والعواصم دور الأمومة ومراكز رعاية الأطفال ، وهيأنا لهم رياضا ومعاهد خاصة . ونشأ بيننا فى اختصار وعى وشعور بأن للطفولة عالمًا يحسب حسابه ، ويتعهّد على نحو خاص . ودخل فى ذهننا أيضًا أن للشباب عالمًا غير عالم الكهول والشيوخ ، وأن له نشاطاً ينبغى أن يوجه توجيهًا سليمًا ، وإلا انقلب على عكس المراد منه . فأنشأنا له أندية ومعسكرات ، ونظمنا له أسفارًا ورحلات . وعنينا بوسائل الترفيه عنه وتسْليته . واضطلعت بذلك جمعيات ومنظمات ، وقامت عليه مصالح وإدارات ، ولم تلبث هذه أن حُوّلت إلى « وزارة الشباب » . وهذه عناية نقدرها قدرها ، ونطلب المزيد منها ، وما أجدر أبناء اليوم ورجال المستقبل أن يحظوا بذلك .

ونحرص على ألا تطغى فى هذا المضمار الأهداف السياسية على الأهداف التربوية ، فتتحول منظمات الشباب إلى خلايا للدعاية السياسية والتكتلات الحزبية . وأنا لا أنكر على الشباب أن يعنوا بالشئون العامة ، وأن يتعرضوا للقضايا السياسية الكبرى ، إلا أنه من سبق الحوادث أن يكونوا محترفين ، وأن يتخذوا من السياسة مهنة . ولا أزال أذكر أنى خضت ، وأنا شاب ، مع الخائضين فى ثورة سنة ١٩١٩ ، واشتركت فى نشاطها ومظاهراتها ، واعتقلت زمنًا ، وما إن خرجت من معتقلى حتى عدت إلى درسى كما كنت . وما تصورت يومًا ، وأنا طالب ، أن من حقى أن أدبر الشئون السياسية أو أن أزعم أن فى وسعى أن أحركها . والخطر دائمًا فى الغلو ومجاوزة الحد ، وفى طغيان الأحداث العارضة على مهمة المرء الأساسية .

وجدير بالقائمين على أمر الشباب أن يعنوا أولاً بسلوكهم وتربيتهم الخلقية ، ليغرسوا فيهم روح الأخوة والمحبة ، والتعاون والتعاضد ، ويرغبوهم فى البذل والعطاء ، ويحملوهم على ايثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، ويدعوهم إلى الفهم والتفاهم ، والعدل والمساواة ، والتسامح والتعاطف . وهم

أيضًا فى حاجة ماسة إلى تربية روحية ، تطمئن إليها قلوبهم ، وترتاح لها ضمائرهم ، ويمتاز سنهم بعاطفة دينية متأججة ، وعلينا أن نغذى هذه العاطفة بغذاء صالح يبعد بهم عن التزمت وضيق الأفق ، ويحميهم من المجون والانحراف. وحدثنى صديق فرنسى كاثوليكى أنه كان لا يحرص على الذهاب إلى الكنيسة للصلاة يوم الأحد ، وما إن شبّ أبناؤه حتى التزم بالذهاب معهم كل أسبوع. وما أحوج الشاب إلى ضمير حى يؤمن بالحق ويقدس الواجب ، وما أحوجه أيضًا إلى أن تربى فيه رقابة ضمير تلزمه بالفضائل وتصرفه عن الرذائل ، ومن لم يكن له من نفسه زاجر فلن تنفعه الزواجر. والمؤمن الصادق يخشى الله قبل أن يخشى الناس ، ويؤدى واجبه مرضاة لضميره قبل أن يرضى الآخرين. وعلينا أن نضرب له المثل فى الأخذ بالمبادئ السليمة واحترام القيم السامية ، ونقدم له قدوات حية ونماذج سلوك عملية ، وإن لم نوفق فى ذلك فالذنب علينا لا عليه.

والواقع أنه ليس ثمة شيء أدعى إلى الاضطراب والبلبلة فى نفس الشاب من أن يرى فى مجتمعه الكبير أفعالاً تناقض الأقوال ، وخداعًا ونفاقًا ، وتضليلاً ومغالطة. ومن الخطأ أن

يظن أن شيئًا من ذلك يخفى عليه ، بل هو يدركه بفطرته السليمة ، ويمقته سرًّا أو علنًا . ولا شيء أدعى لسخط الشباب من الظلم الصارخ والمحاباه الجائرة . يستنكرون ذلك كيفما كان مصدره أو من يستفيدون منه . والمدينة الفاضلة جديرة بأن ينشأ فيها شباب فضلاء ، وما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن . وزلة الوالى أو الرئيس بلقاء مشهورة . وبعكس هذا تتيح المدينة الجاهلة الفرصة للمنحرفين والأشقياء . والمنبت السوء لا يخرج منه إلا نبات سيئ . وللمجتمعات البشرية خيرها وشرها . ولا يفوتنى أن أشير أخيرًا إلى وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة ، ومسرح وسينما . ولها كلها أثرها وتأثيرها فى حياة الشباب واتجاهاتهم . وعلى القائمين عليها مسئوليتهم فى تقديم ما يلائم من قول أو صورة أو تمثيل .

* * *

فصلاح شبابنا واستقامته فى أيدينا . وفساده وانحرافه فى قدر كبير منه من صنعنا ، إن فى البيت والمدرسة ، أو فى المجتمع العام . وخير سبيل للأخذ بيده وتقويمه أن تقدم له قدوه صالحة ، وقيادة نافعة . وما أقل هذه القيادات وأضعفها

فى مواقعها المختلفة ، وعلينا أن ننهض بها وننميها ، وإلا خرج الشباب من أيدينا ، وعزت علينا استعادته .

٥ ـ الشباب والقراءة

القراءة هواية ملحوظة لدى كثير من الشبان - وفيها توجيه وارشاد ، وتثقيف وترويح ، من أولع بها لا يحس بوحدة قط ، وقديمًا قالوا : «وخير جليس فى الزمان كتاب» . وتتـطلب القراءة مرانا ودربة - وإلفا وعادة - وتنويعًا وتجديدًا - وتخيرًا وملاءمة . فهى ركن من أركان تعليم الناشئين ، وواجب من واجبات تربيتهم ، ويقع عبء هذا الواجب على البيت والمدرسة معًا ، ويتحمل المجتمع منه نصيبًا غير قليل . والشاب الذى يحسن القراءة ويحبها يتدارك كثيرًا مما فاته ، وينمى معلوماته باطراد .

وعلى الأسرة أن تيسر لأبنائها وسائل القراءة الرشيدة ، وأن تحببهم فيها ، وتتخير لهم أحسن الكتب وأنسبها . فتفتح أمامهم

الطريق ، وتوجههم التوجيه السليم ، وتشرف فى غير ما تجسس على ما يقرأون . وفى وسعها أن تجعل منهم قراء ناجحين . وأن تزيد معلوماتهم باستمرار . وعلى نحو ما يقرأ الآباء ينشأ الأبناء .

وما دان الفتى بحجى ولكن يعلمه التدين أقربوه

ولا تقتصر القراءة فى البيت على الكتب والواجبات المدرسية ، بل ينبغى أن يضاف إليها قراءات أخرى تدفع إليها الرغبة لا الرهبة ، وتنمى حب الاستطلاع . وإذا كانت الأسرة تحرص على أن تقدم لبنيها أجود الطعام وأجمل الثياب ، فعليها أيضًا أن تتخير لهم أسلم الكتب وأصحها ، وإلا سربت إليهم عدوى الأفكار ، وهى ليست أقل خطرًا من عدوى الأشخاص . وما أحوج شبابنا إلى قراءة سير كبار الرجال ، ففيها قدوة عملية صالحة ، تغذى الروح وتهذب الخلق .

وواجب المدرسة فى هذا لا يقل عن واجب الأسرة ، فعليها أن تعد مكتبات حرة تتناسب مع أعمار الناشئين وأطوار نموهم ، وأن تضعها تحت تصرفهم . وتأخذ المدارس الحقة نفسها بذلك ، ففيها مكتبات للطفولة ، وأخرى لسن البلوغ

والمراهقة ، وثالثة لمرحلة الشباب . ويجد فيها التلاميذ غذاء صالحًا لأرواحهم وعقولهم ، وملئًا لأوقات فراغهم . وهى ولاشك تصرفهم عن أمور ضارة ، ونحن نلاحظ جميعًا أن الطفل أو الشاب إذا وجد ما يستطيب قراءته شغل به عن كل شيء . ويحس رجال التربية بنقص هذه المكتبات فى مدارسنا ، ولابد لنا أن نتداركها . ونحن نشكو فى مسابقاتنا وامتحاناتنا من نقص الثقافة العامة بين أبنائنا وبناتنا ، وهذه هى سبل تكوينها وتحقيقها .

وعلى المجتمع أخيرًا واجبه فى تحبيب الشباب فى القراءة ، فيقدم له الصحف والمجلات المشوقة ، ويتخير له أنسب الموضوعات وأنفعها ، وييسر له أمر الكتاب القيم ، فيجيد طبعه وإخراجه ويخفض ثمنه ، ويزود به الأندية وأماكن لقاء الشباب ، أو مكتبات المدينة والقرية التى يتردد عليها الجمهور . وهذه ناحية ينقصنا فيها الكثير ، وما أحوجنا أن نرعاها إن كنا نريد لشبابنا أن يقرأ ، وأن يقرأ قراءة نافعة .

* * *

والواقع أن شباب اليوم قليل الرغبة فى القراءة ، يهملها إلا إن فرضها عليه درس أو امتحان ، ولا يكاد يستطيب منها

إلا الخفيف والرخيص . وأصبحت القراءات الرخيصة داء استشرى - يتسابق فى وضعها بعض المؤلفين - ويسف فيها نفر من الكتاب . يغذون بها شهوة جامحة ويستغلون جانبًا من جوانب الضعف الإنسانى . وأين شبابنا اليوم من المؤلفات الجادة لأمثال المنفلوطى ، ومصطفى صادق الرافعى - أو عباس العقاد والدكتور طه حسين؟ وقد كان الشباب يقبل عليها أيما إقبال .

وفى كلمة واحدة إن لنا تقاليد صالحة لابد أن نعود إليها - ومعالم لابد أن نهتدى بها - وإلا ضللنا الطريق .

٦ ـ الشباب والحرية

حديثنا اليوم عن حرية الشباب - وأظنكم تتفقون معى على أن الحرية غالية - نادت بها تعاليم السماء ، واستمسك بها أهل الأرض . ولانزال نجد حلاوة فى كلمة عمر بن

الخطاب رضى الله عنه : «ما لكم تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا» . ونحن نقدس الحرية فى مختلف صورها : حرية الفكر ، وحرية القول ، وحرية العمل . ونريد بها أن تكون شاملة ، لا فرق فى التمتع بها بين شاب وشيخ ، ولا بين فرد وجماعة ، ولا بين عربى وعجمى ، ولا بين أبيض وأسود . والحرية شىء غير الفوضى وغير الإباحية ، ومما يؤسف له أنا كثيرًا ما نخلط بينها .

وليس لشباب اليوم أن يشكوا من نقص حريتهم ، فقد نالوا منها قسطًا غير قليل فى البيت والمدرسة والمجتمع ، وربما أسرفوا فى هذا إسرافًا يجاوز الحد . وهم دون نزاع ينعمون بحرية لم ينلها آباؤهم ، ونحن نذكر تقاليدنا القديمة التى كانت تحرم على الأبناء أن يجلسوا فى مجالس الآباء ، أو أن يبدوا أمامهم ملاحظة . انقضى هذا كله ، ولم يبق منه إلا بقايا قليلة فى الريف ، وهى بدورها إلى الزوال . وإنا لنرحب بهذا التطور ، ونؤيد التربية الاستقلالية التى تتفق مع حكمة العربى القديم التى أشرنا إليها من قبل ، وهى : لاعب ولدك سبعا ، وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعا ، ثم اجعل حبله على غاربه . ولكنا نريد حرية فى طاعة ، واستقلالاً فى احترام ، ولن يبقى

للآباء شيء إذا فقدوا طاعة أبنائهم واحترامهم . وعليهم أن يغرسوا ذلك فى نفوسهم بتصرفاتهم الحازمة الحكيمة . وإلا فقدوا معانى الأبوة .

إذا كان رب الدار بالدف ضاربًا
فلا تلومن الصغار على الرقص

وحرية التلاميذ فى مدارسهم مطلوبة ومحببة ، تفتح آفاقهم وتكوِّن شخصيتهم ، وتملؤهم ثقة بأنفسهم . ويستمسك بها كبار المربين ، ويحرصون على أن ينشئوا تلاميذهم عليها . وأذكر أن واحدًا منهم قضى بعض الوقت ليعلم شابًّا أمام زملائه كيف يرفع رأسه ، وينصب قامته ، ويتصرف تصرف الواثق من نفسه . ولكننا نريد للشباب حرية فى نظام ، وكرامة فى طاعة واحترام ، وهذه هى التربية الاستقلالية الصحيحة . أما أن تنقلب الحرية بين الشبان إلى فوضى واضطراب ، فذلك عدوان على التعليم والتربية ، وتفويت لرسالة المدرسة . ولابد من قسوة أحيانًا تضع الأمور فى نصابها ، وتشعر المخطئ بخطئه .

* * *

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما
فليقس أحيانًا على من يرحم

أما أن نتملق الشباب دائما مصيبين أو مخطئين . فإنا نسيء إليهم بقدر ما نسيء إلى أنفسنا .

وللشباب شأنهم فى المجتمع . يرجى منهم أن يكونوا مثال الطهر والاستقامة ، ودعاة الحق والفضيلة . ذلك لأنه لم تدنسهم بعد أوزار الحياة . ولم تهتز أمامهم المثل العليا . فإذا ما انعكس شأنهم ، وأصبحوا هم أنفسهم مبعث شر ومصدر فساد . يخرجون على العادات والتقاليد السليمة ، وينكرون القيم والمبادئ السامية ، لا يرعون الله ولا يرعون الناس ، فتلك ولاشك محنة كبرى وخيبة أمل عظمى . وما أغنانى أن أشير إلى بعض الأمثلة كجماعة الخنافس . ومدمنى الخمر والميسر ، وعصابات التشرد والنهب . وأسوأ ما فى هذا أن يبرر باسم الحرية ، وأن يصور بصورة التقدم والمدنية ، وكأنا أصبحنا لا نفرق بين الحرية والإباحية . ولا بين الحضارة والهمجية . ولكل شاب حريته ، ولكن فى حدود الشرع والقانون ، ودون خروج على الأدب واللياقة . فإن جاوز هذا فذلك تمرد وعصيان .

ليس شيء أحب إلى الآباء من أن يروا أبناءهم خيرا منهم ، ونحن جميعًا نتمنى للأجيال الصاعدة أن تكون على مستوى الواجب والمسئولية. فلنعدّها لذلك ، تلك أمانة فى أعناقنا ، والله يأمرنا أن نؤدى الأمانات إلى أهلها .

* * *

الحلقة الثانية

بناء الإنسان المصرى

١ ـ بناء الإنسان المصرى

الإنسان المصرى هو الدعامة الأولى للمجتمع . ولا سبيل إلى نهوض سياسى أو اقتصادى أو حضارى بدونه . ولاشك فى أنه جدير بأن نقف عنده طويلا . لاسيما وتطوره ملحوظ . وتأثره بالعوامل الداخلية والخارجية كبير . وقد فعلت به الأحداث السياسية والاجتماعية فعلها . ويعنينا أن نبين كيف كان موقفه من هذه الأحداث .

والواقع أننا كثيرًا ما تحدثنا عن ثرواتنا الطبيعية والصناعية . ودعونا إلى تنميتها بشتّى الوسائل . ولم تنل الثروة البشرية ما تستحق من عناية . ولم ننمها بعد التنمية المنشودة . وأصبحنا نحس بأن أزمتنا الحقيقية هى أزمة الإنسان المصرى قبل كل شىء . فى البيت والمدرسة . فى القرية والمدينة . فى المزرعة والمصنع والمتجر . فى الهيئات والجماعات . أوفى المجتمع الكبير والوطن كله .

ومما زاد هذه الأزمة حدة ذلك التطور السريع الذى نمر به - فيتابع موكب الحياة سيره دائمًا - ولا سبيل لأن نتخلف عنه. ولم يبق اليوم محل لأن نجادل فى هذا التطور أو أن نعارضه - والمهم هو أن نواجهه مواجهة صادقة ندفع بها شره ، ونفيد من خيره والجمود أمامه موت وتخلف - والغلو فيه اضطراب وبلبلة - وربما أدى إلى خراب ودمار.

ودعوات الإصلاح الصادقة هى التى تأخذ الأشياء فى يسر وهوادة - فتتأتى وتتدرج - تلائم بين الحاضر والماضى - وتعد للمستقبل - وطبيعة الأشياء تأبى الطفرة. ومن نسى ماضيه نسى نفسه - وعز عليه أن يتعامل مع حاضره - وفقد التوازن الضرورى لحياة الفرد والمجتمع. والثورات والانقلابات من أدوات التطور ووسائله - ولا تخلو من هدم وتدمير - ولكنها إن وقفت عند ذلك كانت خطرًا داهمًا وشرًّا كبيرًا - وكم من ثورات عقيمة لم تعقب إلا الخراب والدمار. والثورات المنتجة هى تلك التى تهدم لتبنى - وتغير وتعدل لتجدد وتصلح.

والإنسان المصرى الذى أقصده هو الفرد العادى ، بصرف النظر عن شبابه وشيخوخته ، عن غناه وفقره ، عن ماله وجاهه ، عن عمله ومركزه ، ولابد أن يتوافر لهذا الفرد قدر

من القيم الإنسانية ، كالصدق والأمانة ، والعدل والنزاهة ، والوفاء والإخلاص ، والجد والعمل ، وحب الأهل والوطن ، وتقديس الحق والواجب . وبقدر ما تكتمل هذه القيم لديه تكمل إنسانيته ، ويصبح عضوًا صالحًا فى مجتمع صالح . وإن فقدها عاد بنا إلى الجاهلية الأولى ، فلا دين ولا ذمة ، ولا احترام لشرع أو قانون ، ولا نزول عند عرف أو تقليد ، ولا رعاية لمصلحة خاصة أو عامة . وحياة الأمم ونهوضها وتقدمها موقوف ذلك كله على حظها من أفراد اكتملت فيهم معانى الإنسانية .

والإنسان عرضة للتغير والتبدل ، وخاضع لسنة النشوء والارتقاء ، أو للتدهور والانحطاط . والحضارات البشرية الكبرى خير شاهد على ذلك ، ويكفى أن نشير إلى اثنتين منها : واحدة فى التاريخ القديم ، والأخرى فى التاريخ المتوسط . ففى التاريخ القديم بلغت الحضارة الإغريقية أوجها فى عهد بركليس ، وأصبحت أثينا منارة العالم الإغريقى ، لما اتسم به أهلها من علم وحكمة ، وما ساد فيها من قيادات فكرية وروحية ، ووصلت نظمها الديمقراطية إلى درجة ملحوظة . ثم جاءت الحروب البلوبونيزية فأضعفت شوكتها ،

ونافستها مقدونيا ، وأخذت تتضاءل شيئًا فشيئًا ، ولم يبق لها إلا مجد أدبي وفكري . لم يلبث هو بدوره أن تدهور وتلاشى ، وبَعُد الإنسان الأثيني عن قيمه ومعاييره .

وفى القرون الوسطى قامت الحضارة الإسلامية على مبادئ سامية وتعاليم سماوية ، تعتد بالإنسان ، وتوجه إليه الخطاب رأسًا . وقد أقبل المسلمون على دينهم ودنياهم بإيمان عميق وروح فتية ، وانتشرت دعوتهم فى العالم شرقًا وغربًا . واكتسى أبناء الصحراء بكساء جديد ، وأصبحوا بناة مجد وحضارة . حاربوا الفساد والطغيان ، ونادوا بالعدل والمساواة ، والشفقة والرحمة ، وضربوا مثلاً عاليًا فى الإخاء والمحبة . ولم يكونوا فى فتوحهم طغاة ولا جبابرة ، بل حرصوا قبل كل شىء على أن يكونوا مربين ومصلحين . واعتنق الإسلام شعوب مختلفة ، وأبناء ديانات متعددة ، كما اعتنقه ورثة حضارات قديمة شرقية وغربية ، ولم يمض على الدعوة الإسلامية نحو قرن ونصف حتى خفقت رايتها فى أركان العالم المعروفة حين ذاك ، فى آسيا وأفريقيا وأوروبا . وقامت على دعائمها حضارة جمعت بين العلم والإيمان ، ووفّقت بين العقل والنقل . أخذت عن الحضارات السابقة ما أخذت ، وأضافت إليها ما أضافت .

وأصبحت ذات طابع خاص يميزها من غيرها ، وبرهن المسلمون على تسامح قل أن نجد له نظيرًا فى حضارات أخرى . وقدر لهذه الحضارة أن تعمّر عدة قرون ، وأفادت منها الثقافات المعاصرة لها ، وعولت عليها . ومهدت دون نزاع للنهضة الأوروبية الحديثة .

ثم عدت عليها عوادى الزمن ، وغفل المسلمون عن تعاليمهم ومبادئهم ، فطغى قويهم على ضعيفهم ، واعتدى كبيرهم على صغيرهم . وأهملوا حقوق الله والوطن ، فأفسحوا السبيل للغزاة والمعتدين . وفتحوا الباب للمستعمرين . نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وقضوا نحو خمسة قرون فى جهل فاحش وظلمة قاتمة .

* * *

وفى أوائل القرن التاسع عشر بدأ فى العالم الإسلامى بعامة ، وفى العالم العربى بخاصة ، وعى جديد ، وهبت نسمة من انتعاش ويقظة . ونالت مصر من ذلك حظها ، فبدأت نهضة حديثة ، وأخذت تصلح وتجدد وتبنى وتعمر . ولها فى

القرن الماضى خطوات يعتد بها ، ولا يصح بحال إهمالها . والا تنكرنا لماضينا وتناسينا أمجادنا . وفى النصف الأول من هذا القرن استعادت مصر نشاطها ، وتلاحقت خطواتها ، وإن بدت وئيدة . وفى الخمس والعشرين سنة الأخيرة شئنا أن نستحث الخطى ، وأن نتدارك بعض ما فات . وكثيرًا ما تعجلنا السير ، وقفزنا على غير هدى . وبلينا بموجة عاتية تستهين بالماضى ، وتخرج على العرف والتقاليد ، وتعدو على القيم والمثل العليا . ووقعنا فى بلبلة واضطراب طغيا على الإنسان فى قوله وعمله ، فى حكمه وتقديره . وسنعرض لذلك فى أحاديثنا المقبلة .

٢ ـ الإنسان المصرى فى أسرته

سأحدثكم الليلة عن الإنسان المصرى فى أسرته ، والأسرة بوجه عام أهل الرجل وعشيرته ، يرتبط أفرادها برباط القرابة والنسب ، ويوثق بينهم عشرة متصلة وعواطف مشتركة ،

ولا حياة لأسرة بدون حب وتعاطف . ولا قيمة لها إن دب فيها دبيب الحقد والحسد. وغذاؤها الدائم أخذ وعطاء ، وتساند وتعاون. ودعامتها الأولى شعور بالانتماء إليها ، فإن فقد هذا الشعور أصبحت وكأن لا وجود لها .

وهى لبنة هامة فى بناء المجتمع ، فإن صحت صح معها ، وإن فسدت قام البناء على غير أساس ، وتخضع لقانون التطور ، كانت فى الماضى كثيرة العدد متشعبة الأطراف ، أشبه ما يكون بالقبيلة أو العشيرة ، متميزة الشخصية ، تحمى حماها ، وتدافع عن نفسها . وليس لأى فرد من أفرادها أن يخرج عليها - وهى المسئولة عن سلوكه وتصرفاته . ثم أخذ نطاقها يضيق شيئًا فشيئا - فعن الأسرة الأم نشأت فروع وأسر متعددة .

* * *

وقد مرت الأسرة المصرية بهذا التطور - فرأينا الأسرة الكبيرة التى يجمعها منزل واحد ، ومائدة واحدة ، وكثيرًا ما سميت دروب القرية وأحياؤها بأسماء الأسر التى تقطن فيها . وأدركنا فى المدينة أيضًا بيوتًا يضم كل واحد منها مائة شخص

أو يزيد ، على رأسهم الجد والجدة أو الأب والأم . وكم كان الأب أو الجد سعيدًا بأسرته يدلل أطفالها ويربى شبابها ، ويشرف على رجالها ونسائها ، الكلمة كلمته ، والرأى رأيه . يؤمن بأنه راع ، فيحرص على أن يضرب من نفسه المثل ، وأن يكون قدوة لأبنائه . وقد نعمت قرانا لعهد غير بعيد بعدد من رؤساء الأسر الذين كانوا يفصلون فى المنازعات ، ويفضون الخصومات ، ويحظون باحترام وتقدير . ويمكن أن يقال إن أربعة أو خمسة من هؤلاء الرؤساء كانوا يسهمون فى تدبير شئون القرية على اختلافها .

ثم بدأ العقد ينصرم ، وتساقطت حباته ، وانقرضت الأسر الكبيرة أو كادت فى القرية والمدينة . ولم يبق منها إلا عصبيات كثيرًا ما أسىء استغلالها ، وأفسدتها الصراعات السياسية والحزبية ، فتنافس أبناء العمومة أو الخؤولة فى ميدان واحد ، وقضى على كثير مما كان للقرابة من قداسة واحترام . وانكماش الأسرة المصرية مجاراة لتطور عام لا محل لأن نعترض عليه ، والمهم أن نواجهه المواجهة التى تلائمه . وأصبحنا أمام أسرة صغيرة لا تشتمل إلا على الأب والأم والأبناء ، وليت هؤلاء الأبناء يبقون على وفائهم للآباء إلى النهاية .

ومسئولية الأسرة الصغيرة لا تقل عن مسئولية الأسرة الكبيرة ، ومما يؤسف له أن هذه المسئولية بدأت تتلاشى وتكاد تنهار . ويقع وزر كثير من انحراف الشباب على الآباء . وسبق أن قلنا إن الأب راع فى أسرته . فعليه أن يرعى أبناءه جسميًّا وروحيًّا . وأدع جانبا التربية الجسمية على ما لها من أهمية . وأقف بخاصة عند التربية الروحية التى لا نقدرها قدرها . غفل عنها الآباء . وكأنها ليست من واجباتهم . ولا أزال أذكر حديثًا لى مع أبوين فرنسيين كانا يحرصان الحرص كله على الذهاب إلى الكنيسة مع ولديهما يوم الأحد من كل أسبوع . ولا يتخلفان عن ذلك قط . ويريان أنه واجبهما نحوهما إلى أن يرشدا . وهما بهذا يلتقيان مع تعاليم الإسلام تمام الالتقاء .

والواقع أن الأسرة هى البيئة الأولى للتربية الروحية . فعلى الوالدين أن ينشئا أبناءهما تنشئة فاضلة . فيربيانهم على الصدق والأمانة ، والعفة والنزاهة ، والتواضع وحسن المعاملة ، وحب الله والوطن ، وألا يلقيا عبء هذا كله على المدرسة وحدها . وفى قدوتهما العملية خير مثل يحتذى . وفى نصحهما وتأنيبهما خير واعظ وزاجر . وكما يكون الآباء يكون الأبناء . وقديمًا قالوا : من يشابه أبه فما ظلم . وكثيرًا ما تنسى الأم

مسئوليتها فى التربية الروحية والخلقية ، وقد تتنصل منها ملقية عبئها على الأب وحده . وعليها أن تعلم أنها ـ هى الأخرى ـ راعية فى بيتها . وكل راع مسئول عن رعيته .

وفى تربيتنا المنزلية أخطاء كثيرة شائعة . أحب أن أشير إلى أمثلة منها . وفى مقدمتها التدليل الزائد عن الحد . ولمرحلة تصل إلى مدة طويلة . ولا نرى فيه خيرًا مطلقًا . لا للمدللين ولا لآبائهم . ومن واجباتنا الأولى أن نعد أبناءنا للمستقبل . ولحياة لا تخلو من عنف وقسوة ، وأن نحارب فيهم تلك الميوعة الممقوتة . ولا معنى لحياة لا تعرف إلا اللهو واللعب . ونخطئ أيضًا فى التفرقة فى المعاملة بين الأبناء . فمنهم المحظوظ الذى ينال كل ما يريد ، والمحدود الذى يحرم من كثير . وفى هذا ما فيه من غرس بذور الغيرة والكراهية بين أبناء الأسرة الواحدة ، وأوضح ما يكون ذلك فى حال تعدد الزوجات . ولعهد غير بعيد كانت البنات شبه مهملات . ثم بدأن يحصلن على كثير من حقوقهن ، وإن كانت الأسرة الريفية لا تزال تشكو من هذه التفرقة . وأمر آخر هو الإغضاء عن الهفوات أو التشجيع عليها ، فيكذب الطفل أو يأخذ مال غيره ، ونُغْمِض

الطرف عنه أو نباهى به ، ونعده ماهرًا وشاطرًا ، وهذه ولاشك شطارة بغيضة مرذولة .

* * *

ونستطيع أن نقرر أن قدرًا غير قليل من طفولة الإنسان المصرى ، بل من شبابه ، ضائع بين البيت والحارة ، ضائع فى البيوت لقصور وإهمال من الأبوين على نحو ما أشرنا . لاسيما وقد جدَّ أمر آخر ، وهو اضطلاع الأم بأعباء الحياة ، تعمل صباحًا ومساءً فى سبيل لقمة العيش ، ومادمنا نشجع المرأة العاملة ، فلابد أن نوفر لأبنائها وسائل الحياة والتربية السليمة . وقدر آخر غير قليل من طفولة الإنسان المصرى وشبابه ضائع فى الشارع والحارة ، وهذه مشكلة اجتماعية خطيرة ، وكم نشكو من جرائم الأحداث ، ونحن مسئولون عنها ، وليس شىء أضر بالطفل والشاب من الفراغ ، وإذا لم يملأْ هذا الفراغ ملئًا صحيحًا ، كان مدعاة للفساد والانحراف . ومن أغرب ما يلحظ أن لدينا الآن حرفًا كالسباكة والنجارة وأعمال الكهرباء بدأنا نشكو من نقص اليد العاملة فيها ، ولدينا جموع غفيرة من الأطفال والشبان تعج بهم الحارات والشوارع

دون عمل مجد ، فهل من سبيل لأن ندربهم على حرفة نافعة وعمل مفيد . هذا واجبنا ، ولا يصح أن نقصر فيه .

٣ ـ الإنسان المصرى فى مدرسته

يدور حديثنا الليلة حول الإنسان المصرى فى المدرسة ونحن نعيش جميعًا فى عصر العلم والتكنولوجيا ، ونؤمن بأن الرقى الحضارى فى أى مجتمع رهن بانتشار العلم والتعليم فيه . وقسمة الدول إلى متقدمة ومتخلفة يرجع خاصة إلى حظ كل منها من العلم والمعرفة ، ولاشك فى أن التعليم يرفع من قدر الإنسان . ويزيد ثروة الأمة المادية والمعنوية . تلك حقائق تنبهنا إليها فى أوائل القرن الماضى ، وبدأنا نهضة تعليمية شاملة . لم تقف عند المرحلة الابتدائية ، بل امتدت إلى التعليم العالى . ولكنها لسوء الحظ لم تسر فى طريقها إلى النهاية . فلم يرعها أبناء محمد على رعايته لها ، وجاء الاستعمار فضيق حدودها .

ومنذ فجر القرن العشرين ونشر التعليم وإصلاحه من

أهدافنا الأولى ، فتوسعنا فى المدارس الابتدائية والثانوية ، أميرية كانت أو خاصة ، وزدنا عدد المدارس العالية . وشاءت الأمة أن تكون لها جامعتها الأهلية على غرار الجامعات الأوربيـة ، وشغلنا بإصلاح التعليم الدينى فى الأزهر ومعاهده . وأصبحنا اليوم ، ولنا فى كل قرية مدرسة أو مدارس ابتدائية ترمى إلى استيعاب أبنائها جميعًا من السادسة إلى الثانية عشرة ، وإن لم يتم هذا الاستيعاب بعد . ولنا فى كثير من القرى مدرسة إعدادية ، وإلى جانبها فصول أو مدرسة ثانوية ، وفى كل مدينة مدرسة أو مدارس ابتدائية وإعدادية وثانوية عامة أو فنية . هذا إلى واحد من المعاهد الدينية التى تشتمل على مراحل التعليم العام المتلاحقة ، وهى فى ازدياد مطرد . وصعد عدد جامعاتنا فى السنوات الأخيرة صعودًا ملحوظًا ، ونهدف إلى أن يكون لكل محافظة جامعتها . وكأنى بالأزهر يرغب بدوره فى نشر تعليمه العالى ، فينشئ فى الأقاليم جامعات أزهرية إلى جانب جامعته الكبرى فى القاهرة . وأعتقد أنا فى حاجة ماسة إلى رسم سياسة موحدة للتعليم عامة والتعليم العالى بخاصة ، وسبق لى منذ ثلث قرن أو يزيد أن وجهت النظر إلى هذا الازدواج ، ودعوت إلى مواجهته مواجهة صادقة .

ومنذ أن قلنا بمجانية التعليم ، والإقبال عليه فى مراحله المختلفة يزيد على كل تقدير ، ولا يحل عام دراسى إلا ونشكو من عجز الأماكن عن الوفاء بحاجات التلاميذ . ويمكننا أن نلاحظ بوجه عام أن نحو ما يقرب من ثلث السكان يتردد الآن على معاهدنا ومدارسنا المختلفة ، ويقضى فيها سنوات لا تقل عن ست . وقد تصعد إلى الخمس عشرة ، وفى هذا ما يبين أهمية المدرسة فى تكوين المواطن الصالح وابن القرن العشرين . وهذه هى النقطة التى أحب أن أقف عندها .

وللمدرسة مهمتان أساسيتان : تعليمية وتربوية ، وقد كثر الكلام حول المهمة الأولى . ويظهر أن العبء زاد علينا كثيرًا ، وأصبحنا نشعر بأن المدرسة فى وضعها الحالى لا تستطيع أن تؤدى هذه المهمة على وجهها . ويكفى أن نشير إلى الدروس الخصوصية المنتشرة فى القرية والمدينة ، وهدفها الأول أن تكمل نقص المدرسة ، أو أن نشير إلى مكافحة الأمية التى دعونا إليها منذ نصف قرن ، ولم تسهم فيها المدرسة بنصيب ملحوظ ، فلم تقف الأمية عند الشيوخ والمسنين ، بل امتدت إلى الشباب والناشئين ، وكأن المدرسة تهدف إلى تخريج أميين . ولا أشك فى أن القائمين على أمر التعليم أنفسهم يشعرون

بهذا ، ويرغبون فى معالجته ، ونرجو لهم التوفيق .

وأوثر أن أقصر حديثى على المهمة الثانية ، وأخشى أن أقول إن مدارسنا فى مختلف درجاتها قد غفلت عن مهمتها التربوية ، ولا تتردد فى أن تلقى عبئها على البيت . وقد قلت فى حديث سابق أن البيت يتنصل هو الآخر من واجبه التربوى ، ويلقى به على كاهل المدرسة ، وبذا ضاع النشء بين الجانبين . والتربية الخلقية والروحية تقوم على أساسين : قدوة صالحة ، واتصال مباشر بين الأستاذ والتلميذ ، أو كما يقول الصوفية بين الشيخ والمريد . ولا أزال أذكر كتاب القرية ، على ما كان فيه من عيوب تعليمية ، فقد اكتملت لشيخه هاتان الوسيلتان ، فحاول ما استطاع أن يكون قدوة ، وحظى باحترام ملحوظ ، ولم يكن عبثًا أن يسمى «سيدنا» . واقتصر درسه على عدد محدود من التلاميذ قل أن يزيد على العشرين ، فكان يعرفهم عن قرب بأسمائهم وأسرهم ، ويكشف عن عقدهم ومشاكلهم ، ويتصل مباشرة بأولياء أمورهم . أنا لا أقول بالعودة إلى «كتاب» القرية ، ولكن قصدت فقط أن أستخلص منه بعض الدروس النافعة .

وما أحوجنا حقًّا إلى أن نعنى عناية خاصة بالقدوة الصالحة

فى معاهدنا ومدارسنا . وعرفت أستاذًا جليلاً كان يرى أن يوكل أمر الروضة والمدرسة الابتدائية إلى المسنين من المعلمين والمعلمات ، طمعًا فى هذه القدوة . ولا يتوقف الأمر فى الواقع على السن وحده ، بل يعتمد أساسًا على السلوك والمثل الطيب . والقدوة قول وعمل ، ولا قيمة لقول يناقضه الفعل . فهل تحظى مدارسنا بهذه القدوة ؟ وهل نرعى سلوك الأطفال والشبان رعاية تامة ؟ إن وجد شىء من ذلك فهو جد ضئيل ، وربما قوبل بضرب من الفكاهة والتندر . وأذكر شيخًا من شيوخ المربين كانت تمتد رقابته فى معهد عال إلى الزى والملبس ، والنطق والتعبير . فأين نحن من هذا ؟

أما الاتصال المباشر فقد أصبحنا ولا سبيل إليه إزاء تلك الأعداد الكبيرة فى فصول المدرسة ، أو فى مدرجات الجامعة . وكيف يتصل المعلم بأربعين تلميذًا أو يزيد فى الفصل الواحد بالمدرسة الابتدائية أو الثانوية ؟ وأين يجد الوقت للتحدث معهم ومعاشرتهم معاشرة حقة ؟ وأنى له ذلك وأعباء الحياة تجتذبه يمينًا وشمالا ؟ وما أشبه مدارسنا ومعاهدنا اليوم بالورش الصناعية والأسواق العامة التى لا نسمع فيها إلا ضجيجًا وجلبة ، فلا نحس بسلوك خاص ولا بحياة روحية . ومشكلة

العدد فى مدارسنا اليوم أصبحت خطيرة ، وحولت تعليمنا إلى قشور لا تغذى العقل ولا الروح فى شىء يذكر ، ولابد أن نعود بفصول الدراسة إلى أعدادها المعقولة .

* * *

والمدرسة فى حاجة ماسة حقًّا إلى جو خاص يميزها من الأجواء الأخرى . جو يسوده الهدوء والسكينة : تطمئن إليه النفس . ويعنى فيه بآداب السلوك قولاً وعملاً ، وبالتنويه بالأخلاق الفاضلة . وبتقديم النماذج الحقة للحياة العملية . ويكسى بكساء روحى واضح فيما يقدم للنشء من دروس وقصص . وما يعلم من طاعات وعبادات .

٤ ـ الإنسان المصرى فى القرية

نحن الليلة مع الإنسان المصرى فى القرية . وقد كانت هذه القرية ولاتزال دعامة المجتمع المصرى وصمام أمنه ، احتفظت بتقاليده . وقدست تراثه ـ نفرت من التطور السريع

المفاجئ . وأنكرت الاستهانة بمجد الآباء . وحالت دون طغيان المدينة الزائف ، وهذبت من حواشيه . ومن عاداتها وتقاليدها ما يرجع إلى مئات السنين ، بل إلى الآلاف ، ومن بين قرانا ما لانزال نلمس فيه مسحة من مخلفات قدماء المصريين . أما الطابع العربي فأشمل وأوضح ، وله بيئات لاتزال تحرص عليه وتعتز به . وكثيرًا ما شمخت بأنفها . وإلى عهد غير بعيد . يوم أن كانت معفاة من الجندية ، ويوم أن كانت لا تقر اختلاط الأنساب بين البدو والفلاحين . ومن حسن الحظ أن تلاشى هذا كله . وأصبح القرويون يعيشون فى وحدة شاملة ، ويشعرون جميعًا بأنهم فى آن واحد عرب ومصريون .

وقد مرت القرية المصرية بمحنة أخرى عانتها زمنًا طويلاً . وتحملتها فى صبر وجلد ، ويا لها من مجتمع مسالم صبور . وتلك هى محنة الفلاح والتركى ، وهى تفرقة ترجع إلى قرون مضت . يوم أن كان الحاكم أو الوالى سيدًا ، والرعية مسودة ، يوم أن كان يملك البر والبحر ، والكل خدم له وحشم . وقد فعل الزمن فعله فى هذه التفرقة البغيضة . واستطاعت القرية أن تمتص هذا كله ، فنسى التركى

جنسيته . وأصبح مصريًّا صميمًا ، ونسى الفلاح ما حلّ به من بطش وجبروت . ومصر من أقدر البلاد على امتصاص الغرباء ، لا يشعر الوافد إليها بوحشة . ولا يكاد يمضى عليه جيل أو جيلان حتى تمتصه هذه الأرض الطيبة . ويصبح وكأنه ابن من أبنائها الأصليين .

وابن القرية شديد الارتباط بترابها . يعشقه على القرب . ويحن إليه على البعد . وفى هذا ما فيه من التعلق والانتماء . وإلى عهد قريب ما كان يرغب فى الرحلة بعيدًا عن وطنه . ولا يرحب بالنقلة . وإذا ما قدر له أن ينتقل أو يرحل لعمل أو ضرورة سرعان ما عجل بالعودة والرجوع . ولم تمتد الهجرة الخارجية إلى القرية كثيرًا . ووقفت فى الغالب عند المدن والسواحل . وفى هذا ضرب من الحماية والصيانة . أما الهجرة الداخلية فمتبادلة . وربما حملت دمًا جديدًا لا يخلو من نشاط وحيوية . وبقدر ما أخذت القرية أعطت . وربما كان عطاؤها أسخى . فغذت المدن القديمة والحديثة بغذاء لا ينقطع . وأمدتها بعمال وصناع . أو بصفوة من المتعلمين والمثقفين . ولا تكاد توجد مدينة مصرية إلا وفيها بصمات ريفية من أعالى الصعيد أو من أطراف الوجه البحرى . وخفت تلك التفرقة بين

الحضرى والريفى ـ وانمحت أو كادت تلك المقابلة بين الصعيدى والبحيرى .

ولاشك فى أن فى هذا التلاقى خيرًا وبركة ـ ومساواة بين أبناء الوطن الواحد . ولكن القرية لم تأخذ حظها من العمران والحضارة ـ وبقيت إلى عهد قريب شبه كم مهمل . فلم تجار المدينة فى ازدهارها ـ ولم يتوفر لها ما ينبغى من وسائل العيش والحياة . وكثيرًا ما هجرها من رحلوا عنها من أبنائها ـ وقد كانوا يحرصون بالأمس على أن يكون لهم فيها موطن وسكن . وزاد هذه الهجرة خطرًا أن بعض شيوخ القرى ومن كان لهم شأن فيها قد استهواهم بريق المدن ـ فنسوا قراهم نسيانًا تامًّا وانصرفوا عنها . وفى كل ذلك ما يلقى أعباء جساما على الحكم المحلى الذى نأمل أن ينهض بالقرية نهضة حقيقية ـ وأن يزيل ما نلحظه فيها من وصمة فى جبين الوطن كله . وأخشى ما نخشاه ألا تقدر الهيئات الإقليمية رسالتها حق قدرها ـ وأن يركز الحكم المحلى ـ هو الآخر ـ على المدن ـ وتبقى القرى فى زوايا النسيان .

وتعميم مياه الشرب ـ وبسط شبكة الكهرباء فى الريف من الوسائل الناجعة قطعًا للنهوض به ـ ولابد أن يصاحبها

عناية كافية بالطرق لأنها شريان الحياة . وللمنشآت الصناعية . دون نزاع . شأن كبير فى دفع عجلة النهوض والتقدم فى الريف بأسره . وقد خطونا فى الثلاثين سنة الماضية خطوات لا بأس بها فى سبيل نشرها وتوزيعها على القطر جميعه . وما أحوجنا لأن نضع لذلك خطة شاملة وثابتة . وتجاربنا خلال نصف قرن أو يزيد تشهد بأن البيئات الصناعية تحمل معها النور والعرفان . والنهوض والتقدم . ويكفى أن نشير إلى المحلة وكفر الدوار فى الوجه البحرى . أو إلى الحوامدية وأسوان فى الوجه القبلى . وقديمًا قالوا : ينبغى أن نعيش قبل أن نتفلسف . ولا سبيل إلى نهوض أدبى بدون دعامة مادية .

* * *

هذه هى القرية فى بعض جوانبها الاجتماعية والمادية . ولا ننكر أنها خطت فى الخمسين سنة الأخيرة خطوات فى سبيل النهوض والتقدم . ونريد لها متابعة السير واطراد الخطى . والإنسان المصرى ابنها ووليدها . وقد تخلص من عقدة الريفى والحضرى . ومن عقدة الفلاح والتركى . وتخلص أيضًا من

عقدة الصعيدى والبحيرى . وسبق لهذه العقدة الأخيرة أن أثارت ما أثارت من حساسية . وكان لها دخل فى بعض الهيئات السياسية . وصدى فى بعض التشريعات . وخاصة ما اتصل منها بتوزيع المحاصيل وإقامة المنشآت العامة . وأصبح الإنسان المصرى فى القرية يحس اليوم بأنه مصرى وعربى . ولا يبالى بعد هذا بشىء . لا بفرقة اللون ولا باختلاف اللهجة . وبدأ يشعر بشىء من متاع الدنيا . وإن كان لايزال دون المستوى .

ونتساءل الآن هل استمسك فى مسيرته هذه بما عرف فى بيئته من قيم وتقاليد ؟ تلك هى المشكلة . وينبغى أن نواجهها فى صراحة . وأظننا نتفق على أن القرية فقدت بعض معالمها . فقدت كثيرًا من مظاهر الود والتعاطف التى كانت سائدة فيها . وحرمت من دعاة الحب والوئام بين بنيها . طغت عليها نزعة مادية قاسية . وأصبحت لا ترعى ما كانت ترعاه قديمًا من جوار وقرابة . فنافس الأخ أخاه . وأضاع الجار جاره . قل احترام الصغير للكبير . وضعف عطف القادر على المحتاج . وذهبت تلك القيادات الروحية والاجتماعية التى كانت دائمًا رسل سلام ومحبة . ومن لنا فى مسجد القرية بإمام ناصح

أمين . وفى مدرستها بمرب مخلص صادق . وفى إدارة شئونها العامة بعمدة يحب الخير للناس كما يحبه لنفسه . يؤلف القلوب ويوحد الصفوف . لا نريد من هؤلاء الثلاثة أن يكونوا مجرد موظفين . بل نريد بهم ولهم أن يعيشوا حقًّا مع من حولهم . وأن يحسوا بإحساسهم . ويشعروا بشعورهم . إنهم إن فعلوا عادوا بالقرية إلى ذلك المجتمع الهادئ السليم . ونشأوا من بنيها من يحب أخاه وجاره . ومن يرعى الله والوطن .

٥ ـ الإنسان المصرى فى المدينة

نريد جميعًا بناء الإنسان المصرى بنيانًا قويًّا متينًا . وسبيل ذلك أن نتتبعه فى ميادينه المختلفة ، فنبين ما هو عليه . ونكشف عن مواطن ضعفه ، ونرسم لها ما نرجوه من علاج . وقد عرضنا فى أحاديث سابقة للإنسان المصرى فى البيت وفى المدرسة ، ثم وقفنا عنده قليلاً فى الريف والقرية ، ونريد الليلة أن نتحدث عنه فى الحضر والمدينة . وللحضر مشاكل

وصعوبات لا تقل عن مشاكل الريف ، ولا غرابة فالمدينة مجتمع سكانى أشد كثافة ، وأكثر تنوعًا ، وأسرع تطورًا . وهى بطبيعتها مفتوحة لأخلاط من الناس فيهم الخبيث والطيب . وليس من اليسير التفرقة بينهم ، وفى إمكانهم أن يختفوا فى جوانب المدينة المتعددة . وقل أن تجمعهم صلة أو يربطهم رابط . اللهم إلا أن يكونوا أبناء حرفة واحدة ، أو أن يلتقوا عند مصالح مشتركة . وحياة المدينة فى الجملة أعنف . والتنافس فيها أشد ، والتيار جارف ، ومغرياتها لا تحصى .

والمدن رمز الحضارة ، وشارة المجد والسلطان ، ولكل حضارة مدنها ، وربما اقتصر تاريخ أمة على حياة مدينة أو مدينتين من مدنها . ومن المدن ما عمر على الزمن ، وجاوز حياة أمة بعينها ، وربط التاريخ القديم بالتاريخ المتوسط والحديث . كأثينا ، وروما ، والإسكندرية . ويوم أن نشر الإسلام دعوته أخذ يؤسس المدن ، ويمصر الأمصار ، فأسس أولاً الكوفة والبصرة ، وهما مدينتان لهما تاريخ حضارى وثقافى زاهر ، وتلتهما الفسطاط والقيروان ، ولكل واحدة منهما دور حضارى كبير ، وفى أخريات الثلث الأول من القرن الثانى للهجرة أسس المنصور بغداد التى أصبحت العاصمة الكبرى

للعالم الإسلامى جميعه . وفى منتصف القرن الرابع الهجرى ، أنشأ الفاطميون القاهرة المعزية ، وكأنما شاءوا أن ينافسوا بها بغداد ، وفى آثارها الباقية ما يسجل صنيع من تولوا أمرها من حكام وولاة . ولسنا فى حاجة أن نشير إلى جمال الفن الإسلامى وروعته ، ومما يؤسف له أنا لم نرعه حق رعايته ، وكم قضينا على مبانى وأحياء كانت تراث الماضى وذخر الحاضر .

وتسير بيننا حركة تحضير نشيطة ، فتحول بعض القرى إلى مدن ، أو تنشأ من جديد مدن أخرى بمعزل عن القديمة ، وندع جانبًا ما أخذ على هذا التحويل أو الإنشاء من ملاحظات اقتصادية واجتماعية وفنية . ومن عاصروا إنشاء مدينة الأوقاف مثلاً يذكرون ما دار حولها من نقد وتجريح ، وما صادفها من صعاب قضينا وقتًا غير قصير فى تذليلها . ونرجو ألا نبدأ فى أى تعمير حضرى قبل أن يستكمل درسه ونعد له عدته . ويعنينا هنا أن نشير إلى أن المدينة بدأت تطغى على القرية طغيانًا ملحوظًا ، وبالأمس القريب كان سكان المدن لا يمثلون إلا نسبة محدودة من سكان القرى ، وها هم أولاء اليوم يكادون يعادلونهم ، وأخشى ما أخشاه أن يزيدوا

عليهم . أخشى ذلك إبقاء على ثروتنا الزراعية التى تشكو فعلاً نقصًا فى الأيدى العاملة ، وحفاظًا على التربة التى نريد لها أن تنمو وتزدهر ، بدلاً من أن تهمل وتهجر ، وأخشاه أيضًا خوفًا من التطور المفاجئ الذى تشجع المدينة عليه وتحبب فيه ، وحرصًا على قيمنا وتقاليدنا التى ترعاها القرية رعاية أدق وأكمل .

* * *

والحق أن المدينة أسرع تقبلاً للطارئ والدخيل ، تلجأ إليها الجماعات السرية ، وتحتمى بها الخلايا الهدامة . يتسع صدرها للنظم الغريبة والدعايات الضارة ، ويمكن ربطها بشبكات خارجية أو داخلية . وفى جلبتها وضوضائها ما يصرف الأنظار عن وسائل الغش والخداع ، وما يعين على التفنن فى الإعداد والتدبير . وبالأمس القريب كان أمن الريف شغلنا الشاغل ، ووقفنا عند بعض أحداثه وقفات طويلة ، وفيها ما أمد كتاب القصص والروايات بمادة غزيرة . واليوم نشكو بخاصة ونحذر حقًّا من اضطراب الأمن فى المدينة ، وكثيرًا ما عز علينا الكشف عن المخابئ والأوكار ، وقد لا نهتدى إليها إلا بعد أن تشتعل النار ويتطاير الشرر .

وفى المدن أمر آخر نبالغ فيه ونتوسع فى إباحته ، وكأنا لا نحس بضرره وخطورته . ألا وهو المقاهى والأماكن العامة للسهر والتسلية ، وقد ضربنا فيها رقمًا قياسيًّا لا أكاد أجد له أشباهًا تذكر فيما زرته من مدن عربية أو أجنبية . ومما يؤسف له أن وراء إنشاء هذه الأماكن محترفين يعرفون كيف يصلون إلى غايتهم . فتفتح أمامهم الأبواب وتحل العقد . ولست فى حاجة أن أشير إلى ما فى هذه الأماكن من مضيعة للوقت والمال وإفساد للخلق . وكأنما نشجع على التعطل والكسل ونرخص لها . وعبثًا نحاول إن شددنا الرقابة على هذه الأماكن . مادمنا قد أقررناها وسلمنا بها ، وبؤر الفساد لابدّ أن تنشر سمومها وتؤدى وظيفتها . ولشارع الهرم على سبيل المثال سمعة أضحت مع الأسف عالمية ، ولا تخلو من تندر وفكاهة يلهج بها الأجانب والدخلاء . ولا نزاع فى أن عددًا غير قليل من شبابنا يذهب ضحية لهذا اللهو والإغراء ولا يجدى فى شىء وعظ الوعاظ ولا نصح الكتاب . مادامت بؤر الفساد قائمة . أنا لا أرفض الترويح عن النفس ، ولا أحارب التسلية . ولكنى أريد بها أن تكون بريئة وهادفة ، وأن توضع لها ضوابط وحدود . فمثلاً بدلاً من أن نضبط صغار التلاميذ الذين يفرون من مدارسهم ويلجأون إلى دور السينما صباحًا

أولى بنا ــ كما صنع غيرنا ــ أن نحدد أعمارًا لدخول هذه الدور . وهذه ولاشك رقابة مجدية .

ولدينا تجمعات أخرى كالأندية الرياضية ودور النقابات والهيئات العامة . وهى فى حاجة إلى قدر غير قليل من الضبط والتنظيم . وفى وسعنا أن نفيد منها ثقافيًّا واجتماعيًّا . إلى جانب ما ننشده فيها من ترويح وتسلية . وجانبها الثقافى شبه معدوم . وفى الإمكان أن نستخدمها لتحقيق أهداف شتى ، كمكافحة الأمية ، أو توسيع الأفق . أو زيادة المعلومات العامة . ومما يؤسف له أنه لم يبق فيها للسلوك والمظهر الشخصى اعتبار يذكر . وهناك أندية كانت تلتزم فى الماضى شرائط معينة فى الزى والملبس . ولا نزاع فى أن المستوى الأدبى فى بعض الأندية أصبح أدنى مما كان عليه بالأمس . وأدع جانبا الألفاظ والعبارات . والإشارات والتعليقات ، ففيها ما يحمر له الوجه ، ويندى الجبين . وكأنما أصبحنا لا نشعر بهذا ولا نبالى به . وفى طرقنا وشوارعنا ، وفى مجتمعاتنا وأنديتنا ألفاظ سوقية . وعبارات جارحة لم نكن نسمعها من قبل . ولا تليق بمجتمع مهذب بحال .

* * *

إن بناء الإنسان المصرى عمل طويل وعسير ، يبدأ من المهد ، ويمتد إلى اللحد . وليس شىء أضر به من الاستهانة والاستهتار ، ومن المخزى والمؤلم أن نهزل والعالم كله يجد . فلنأخذ الأمور فى جد إذن ، ولنحاسب على الصغيرة والكبيرة ، وكثيرًا ما تولدت أمور خطيرة عن مسائل تافهة . علينا أن نحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب غيرنا ، وأن نضرب المثل العملى ، دون أن نقنع بالمواعظ والحكم ، وما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن .

٦ـ الإنسان المصرى فى المصنع

فى حياتنا الحاضرة تجمعات مختلفة وتخصصات متعددة ، ولعل التجمع الريفى فى تاريخ البشرية من أولها نشأة وأقدمها زمنًا . ثم قامت إلى جانبه تجمعات أخرى حرفية ومهنية ، نشأت أولاً محدودة العدد ، سهلة التكوين لا تعقيد فيها ولا تخصص ، ولا درس ولا تعلم ، وسبيلها ضرب من المحاكاة والتقاليد . وربما جمع الفرد الواحد بين حرفتين أو

أكثر ، ولا يزال فى قرانا ، بل فى مدننا ، شىء من الحرف العائلية المتوارثة . ولم تلبث هذه الحرف أن تنوعت وتعددت ، وتعمقت وتخصصت ، وأصبح لكل حرفة طابعها الخاص . ثم تحولت إلى تجمعات صناعية أساسها العلم والدرس ، فيها أجهزة وآلات ، وفن وخبرة ، وعلم وتكنولوجيا . وكان طبيعيًّا أن تطغى هذه التجمعات الصناعية على التجمعات الريفية ، وأن تنافسها منافسة قوية ، وأصبحت رمزًا للنمو والازدهار . ويمكننا أن نقرر أن النهوض الصناعى هو الفارق الجوهرى بين البلاد النامية والبلاد المتقدمة .

وأود أن أقف حديثى الليلة على الإنسان المصرى فى المصنع . ولمصر صناعاتها التقليدية المعروفة من قديم ، وقد بدأ محمد على حركة تصنيع عصرية أوسع مدى وأعظم نشاطا ، إلا أنه لم يقدر لها أن تسير فى طريقها إلى النهاية . وفى أوائل هذا القرن بدأنا نفكر فى الأخذ بأسباب التصنيع الحديث ، مستعينين ببعض الخبرات الأجنبية ، ودفعتنا الحرب العالمية الأولى نحو الصناعات الكبرى ، وهى عنوان الازدهار الصناعى المعاصر. واستجاب بنك مصر لذلك استجابة صادقة ، وأسهم فيه إسهامًا ملحوظًا . وانضم إليه نفر من

الرواد والمجددين ، وأدلوا بدلوهم ، وقادوا السفينة فى حزم وحكمة . وسارت الصناعة المصرية الحديثة فى طريقها يحدوها الأمل ، ويرعاها أصحابها فى حرص عليها ورغبة صادقة فى النهوض بها ، يستفيدون ويفيدون ، ومن الظلم أن نغمط هؤلاء الرواد حقهم ، أو أن ننتقص جهودهم .

وفى ربع القرن الأخير شاء العهد الحاضر أن يدفع حركة التصنيع دفعة قوية ، فأنشئت هيئات تخطط لها ، وأخرى تشرف على تنفيذ مشروعاتها . وعنى خاصة بالصناعات الثقيلة والكبرى كصناعة الحديد ، وصناعة الألومنيوم ، وتوليد الكهرباء، واستولى القطاع العام على معظم المنشآت القديمة ، وأضاف إليها ما أضاف من منشآت جديدة . وتلك ولاشك ثورة صناعية أحدثت ما أحدثت من بلبلة واضطراب ، ولم تخل من قصور فى التخطيط ، أو تعجل فى التنفيذ ، أو فساد فى الإدارة ، ولكنها تعد حقًّا خطوة هامة فى نهوضنا الصناعى ، وعلينا أن نعززها ، فنتدارك نقصها ، ونقوِّم معوجها ، ونقضى على عناصرها الضعيفة أو الفاسدة ، ونضيف إليها كل ما تحتاج إليه من جديد نافع ، وقد تضاعفت تجمعاتنا الصناعية تضاعفًا كبيرًا ، وأصبحت من

قطاعات مجتمعنا الهامة . وفى الأمس القريب كان عمال الصناعة يعدون بالمئات أو الآلاف . وها هم أولاء يدخلون اليوم فى زمرة الملايين . وفى بعض مصانعنا أعداد تفوق نظائرها فى بعض البلاد العريقة فى الصناعة . وما أحوج هذه التجمعات الكبيرة إلى التوجيه والإرشاد . والتعهد والرعاية .

* * *

والعامل الصناعى لبنة هامة اقتصاديًّا واجتماعيًّا فى بنيان الأمة ، وقد عرف من قديم بالطاعة وحسن التقبل ، بالمهارة والذكاء ، بالاخلاص والتفانى . يحب عمله ويقبل عليه ، يتأنى فيه ويجوّده ، ينتسب إليه ويباهى به . يتعلم ويعلم ، وكم نعمت مصانعنا برؤساء ، أو « اسطوات » كما يسمون ، بدأوا من الصفر ، ولم يلبثوا أن صعدوا إلى مستوى فنى ملحوظ . وكونوا حولهم أجيالاً من الصبيان والتلاميذ الذين أصبحوا معقد الأمل وعدة المستقبل . وقد شهد لعمالنا بذلك كله كل من اتصل بهم من إداريين وفنيين ، سواء أكانوا أجانب أم مصريين . وسما إنتاجنا الصناعى إلى درجة من الإتقان والجودة استطاع معها أن يغزو الأسواق الخارجية ، وأن ينافس الإنتاج العالمى .

ولكنا مع الأسف بدأنا نحس بنكسة هبطت بهذا الإنتاج عن مستواه ، وبدا أنه لم يحتفظ بجودته . ولوحظت عليه أمور ، أخصها ظهور نقص فيه وعيوب كان يمكن تداركها . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تهاون وعدم عناية . ومنها تفاوت وحداته فلا تجيء على وتيرة واحدة ، أو تفاوت أجزاء الوحدة الواحدة ، فيجود أولها ، ويضعف وسطها أو آخرها ، ويظهر أنا بوجه عام لا نعنى بالخواتيم والنهايات أو « التشاطيب » كما يقولون بلغة الصناع . وقد نسيء استخدام الخامات فنخلط بها ما ليس منها خطأ أو عن سوء قصد . وفى هذا ما فيه من غش وتمويه . والنزاهة أمر ضرورى فى القول والعمل ، ولسنا بصدد أن نتتبع فى تفصيل جوانب النقص فى إنتاجنا الصناعى ، وإنما قصدنا أن نشير خاصة إلى ما يتصل منها بالنواحى الإنسانية . والإنسان هو الثروة الحقيقية لكل أمة ، وبدونه لا سبيل إلى نهوض أو تقدم .

وفى السنوات الأخيرة ترددت الشكوى من الإنتاج الصناعى فى القطاع العام . ولا نزاع فى أن لهذه الشكوى محلها . ووراءها عوامل شتى كنقص الخامات ورداءة نوعها ، أو فساد الأجهزة والآلات وعدم العناية بإصلاحها

وتجديدها ، أو سوء الإدارة وضعف الإشراف عليها . ولكن هناك عاملاً آخر لا يصح أن نغفله ألا وهو الإنسان . فقد دللناه وتملقناه . وحرصنا على رضاه وتأييده أكثر من حرصنا على عمله وإنتاجه . واستجبنا لمطالبه بحق أو بغير حق . وقل أن نفكر فى محاسبته وتقييم عمله . فاختلط المحسن بالمسىء ، وتساوى العامل بالعاطل . وأصبح الإنسان المصرى فى المصنع وكأنه لا يعرف إلا الحقوق والمطالبة بها ، أما الواجبات فلا يكاد يعنيه أمرها . وربما شجعته الهيئات والنقابات على ذلك . ولم يحاول رؤساؤه والمشرفون عليه أن يضربوا له المثل الصالح . ويقدموا له القدوة النافعة . ويزداد الأمر خطرًا يوم أن يساء اختيار هؤلاء الرؤساء . ويوم أن يجنحوا هم أنفسهم عن مهمتهم الأصلية إلى ملق وزلفى . أو إلى سعى وراء مغنم وإثراء على حساب المصلحة العامة .

* * *

فأين نحن من العامل ورب العمل اللذين كانا يدينان لمصنعهما بالولاء والتبعية . ويؤمنان بأنهما جزء منه لا يتجزأ . ويباهيان بما يحققان فيه من جودة وإتقان . وما أحوجنا أن

نعود إلى ذلك - وهو أمر طبيعى - وخاصة بعد أن أصبح المال فعلاً مالنا ، والمصنع ملكًا لنا . فهل نؤمن بذلك حقًّا ؟ يظهر أنا لم نصل إلى ذلك بعد - ويوم أن نصل إليه سنحل كل عقده - وسنتغلب على كل صعوبة .

٧ ـ الإنسان المصرى
فى الديوان والمكتب

سبق أن عالجت ، منذ أربعين سنة تقريبًا ، مع صديقى مريت غالى ، موضوع «الإدارة الحكومية» ، وأخرجنا فيه مؤلفًا أغضب الملك وأعوانه ، وأقلق الوزراء والمستوزرين ، وفتشت من أجله دورنا ، وصودر كما تصادر كتب الدعاية الهدامة ، ويعلم الله أنه لم يكن لنا فيه من قصد إلا أن نكشف عن جوانب النقص ، وندعو إلى شىء من العلاج والإصلاح . ثم قدر لهذا الكتاب أن ينشر ويعرف ، وكان

حديث الناس زمنًا ، واشتد عليه الطلب من الداخل والخارج . ولم تلبث طبعته الأولى والوحيدة أن نفدت بعد عام أو عامين ، وكم طلب إلينا أن نعيد طبعه ، أو أن نعود إلى الموضوع مرة أخرى ، وما أكثر ما جد فيه !

والسلطة التنفيذية إن أدت وظيفتها على وجهها نشرت العدل والأمن والطمأنينة ، وحققت كثيرًا مما ننشده من رخاء ورفاهية ، وسارت بنا قدمًا فى طريق النهوض والإصلاح . وهى دون نزاع أبقى من البرامج والشعارات السياسية ، وألصق بالخدمة العامة من الأحزاب والحزبيين .

وكان لى مرة حديث بالهند فى هذا الشأن عام ٥١ مع نهرو ، وجرت على لسانه كلمة لا أنساها بحال وهى «أن السلطة التنفيذية إن صحت كانت أعون على النهوض واستقامة الحكم من البرامج الحزبية والدعايات السياسية» ، ومن واجباتنا الأولى أن نحميها من الساسة والمتحزبين . وقال لى يومًا ريفى مسن : أنا أعرف البحار ، وحلاق الصحة ، والصراف ، وشيخ الخفراء ، وإن استقام أمر هؤلاء استقام لى كل شىء .

ومجال القول فى الأداة الحكومية ذو سعة ولها سلطاتها الثلاث المعروفة : التشريعية ، والتنفيذية والقضائية . وليس

شيء أضر بهذه السلطات من أن تختلط ، أو أن يعدو بعضها على بعض .

وقد وقفنا طويلاً فى كتابنا الذى أشرت إليه عند مبدأ فصل السلطات . وسجلنا عدوان الملكية والحزبية عليه ، ومن العبث أن نتحدث عن سلطات أو عن فصل بينها فى حكم دكتاتورى . وأكدنا ضرورة الاستمساك باستقلال القضاء واحترامه ، ودعونا إلى توحيده ، وإنشاء مجلس الدولة . وقد أخذ فعلاً بما دعونا إليه ، فأنشئ مجلس الدولة عام ٤٦ ، ووحد القضاء بعد ذلك ببضع سنين . بيد أن هذا لم يمنع الحكم الدكتاتورى من العدوان عليه والتنكيل برجاله ــ أما السلطة التنفيذية فقد عنينا فيها خاصة بأمرين هامين : أولهما وضع الرجل الصالح فى المكان الصالح ، وثانيهما التخلص من المركزية وتمكين كل عامل فى الدولة من تحمل مسئوليته . ولم يسلم هذا بدوره من عدوان أثر عدوان ، فهل لنا ، ونحن نتحدث دون انقطاع عن التصحيح ، أن نتلافى أخطاء الماضى . وأن نحول دون وقوعها .

* * *

ولن أعرض فى حديثى الليلة للسلطة التنفيذية فى شتى جوانبها ، بل أقصره على الإنسان المصرى فى المكتب والديوان . وإذا كنا قد شكونا فى أحاديثنا السابقة من سوء تربيته وتكوينه فى البيت والمدرسة ، ومن اضطراب أحواله فى القرية والمدينة ، ومن ضعف إنتاجه فى الحقل والمصنع . فإن شكوانا منه فى الجهاز الإدارى أشد وأعظم . فهو لا يقدس الخدمة العامة التقديس اللائق بها ، ولا يؤمن بأنها ضريبة واجبة الأداء . وعلى أحسن وجه . وكل همه أن يسد الخانة . وأن يثبت الحضور ، وأن يتحايل على الغياب . ولو خشى الله وخشى الناس لأدى الأمانه على وجهها ، وكيف يخشى الله وقد بعد عنه . ولا سبيل لأن يخشى الناس مادام قد انمحى من قاموسنا الإدارى فكرة الجزاء والعقوبة .

وهذا الإهمال ملحوظ فى مكاتبنا ودواويننا على اختلافها . وأقبح ما يكون إذا وقع فيه المسئولون ومن هم فى مراكز القيادة . وأذكر فى حديث لى مع المرحوم إسماعيل صدقى . وكانت الوزارات حين ذلك تسعا فقط ، أنه قال : أعطنى تسعة وكلاء وزارات يعرفون واجبهم ويقدسونه . واسألنى بعد ذلك عن الجهاز الإدارى وسيره .

ولا أتحدث عن النظام والترتيب ، فنحن فيما يبدو نعشق الفوضى ، فوضى فى تسلم الطلبات والمستندات ، وفى حفظها وتسجيلها ، وكم شكا أصحاب الحاجات من ضياع أوراقهم ، وأظن أنه قل بين الممولين مثلاً من يعتمد على بيانات مصلحة الضرائب لإثبات ما سدد من استحقاقات. وأقسام الصادر والوارد والأرشيف بوجه عام موضع شكوى فى مصالحنا المختلفة ، وهناك فوضى أخرى فى المكاتب وتوزيعها ، وفى الزائرين واستقبالهم ، فتختلط الأقسام والإدارات ، وتزدحم المكاتب ، فلا يؤدى عمل ، ولا تقضى حاجة . ويستقبل الزائرون بغير حساب ودون تقيد بموعد معين . وأدع جانبًا الأكل والشرب ، فهما مباحان فى المكاتب إباحة مطلقة ، ولا مانع من أن يبيع الشخص ويشترى فى مكتبه بعض ما يحتاج إليه .

والوقت والمواعيد لا قيمه لها ، فتحدد ساعات الحضور والانصراف ولا يبالى بها ، ولا نكاد نفرق فى إدارة أو مصلحة بين الخارج والداخل . وليتنا نقف تلك اللحظات التى نقضيها فى المكتب على المطلوب ، فقهوة الصباح ضرورية ، وقد تليها قهوات أخرى ، ثم يجىء طعام

الإفطار ، ولا بأس من أن نقرأ الصحيفة ونقف على أخبار الدنيا ، وفى خلال ذلك كله سمر وتسلية يقطعان الوقت ويعطلان العمل. ومن اليسير التخلص من طلبات الجماهير بالتأجيل إلى الغد ، والغد فى عرف الدواوين ليس بقريب . وقد ننجح أيضًا فى تأجيل طلبات بعض الرؤساء والمشرفين وبارك الله فى بكرة . فهى تعفينا من كل طلب عاجل . ومن شاء أن يقضى حاجته ، فعليه أن يلجأ إلى وسائل قد تكون غير شريفة ، ومن لا واسطة له لا يستمع إليه .

وأذع جانبا الجهل وقلة الخبرة اللذين تفشيا فى مصالحنا ودواويننا تحت ضغط أصحاب النفوذ والأنصار والاصهار . وهناك من لا يقنعون بالعمل الذى يحسنونه ، ويأبون إلا أن يقفزوا على حساب غيرهم إلى مناصب أسمى ، وكثيرًا ما أجيبوا إلى رغبتهم دون رعاية لظروف العمل ومتطلباته . وفى المسابقات والاختبارات التحريرية والشفهية ما قد يكبح جماح هذا الطغيان . ولكن هل يؤمن الطلاب والمتسابقون حقا بنزاهة هذه الاختبارات وعدالتها ؟ واجبنا أن ننتهى بهم إلى ذلك .

* * *

هذه صورة قاتمة ولاشك ، وفى شئوننا الإدارية ما يبعث حقًّا على الأسى والأسف . ولكن لكل داء دواء ، ودواؤنا الحقيقى أن نحسن الاختيار ، وأن نحكم الرقابة والإشراف ، فنضع الرجل الصالح فى المكان الصالح ، ونكافئ المحسن على إحسانه ، ونحاسب المسيء على إساءته ، ولم يبق محل لإهمال أو تأجيل ، ولو أنصف الناس استراح القاضى ، وبات كل راضيًا عن أخيه .

٨ ـ الإنسان المصرى المواطن

الوطن غال كما يقولون ، وحب الوطن من الإيمان . وقد عرف المصرى بحبه لوطنه ، فهو لا يكاد يبرحه ، ولا ينشط كثيرًا للرحلة والانتقال عنه ، وإذا ما اضطر لسفر خارج البلاد عجل بالعودة ما استطاع .

وكم سعدنا أخيرًا بتلك الحركة النشيطة التى دفعت العامل المصرى لأن يغزو ميادين العمل فى الأقطار الشقيقة ، وإن كان

يعتبر نفسه ضيفًا عليها دائمًا . أما الهجرة الجماعية فالمصريون من أقل الشعوب إقبالاً عليها ، ولهم فيها تجارب حديثة ، وهى أقرب إلى التهجير منها إلى الهجر ، ولا نزال نرتقب نتائجها .

وقد عرف المصرى كيف يضع طابعه على وطنه منذ آلاف السنين ، فبنى فيه قديمًا الأهرام وأقام المسلات والتماثيل،وشق حديثًا الترع والجسور ، وأنشأ القناطر والخزانات .

وتواردت عليه عناصر وجنسيات مختلفة من الشرق والغرب ، فامتص ما اختلط به منها ، ومصره تمصيرًا كاملاً بعد جيل أو جيلين . وما بقى منعزلاً عنه من الغزاة والدخلاء ، كثيرًا ما كانوا مبعث تندر وفكاهة . ونستطيع أن نقرر أن دعوى العنصرية لم تجد فى مصر سوقًا رائجة قديمًا أو حديثًا ، وقد عرف النيل كيف يربط أبناءه برباط وثيق . ومنذ أن جمع مينا بين أبناء الشمال والجنوب ، لم تنفصل وحدتهم ، وكان الجنوب يمتد إلى السودان الشمالى بأكمله ، والصعيدى والبحيرى أبناء وطن واحد . وفوارق الحسب والنسب مؤقتة وزائلة ، وترجع فى الغالب إلى فوارق جاه ومال ، ومال الله غاد ورائح . وقرانا متشابكة بسلاسل نسب متبادلة ، وفى كل أسرة فقيرها وغنيها . ولا يعرف الإسلام فوارق الدم بحال ،

« كلكم لآدم وآدم من تراب » . ورحم الله عمر بن الخطاب الذى استدعى إلى مجلسه من زعم أنه ابن الأكرمين ، وطلب إلى من اعتدى عليه أن يقتص منه .

وقد غرس الإسلام فينا بذور التسامح الدينى ، ونماها المصرى بما فطر عليه من عطف وسماحة . ويكفينا شرفًا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم صاهرنا ، وأصبحت مارية القبطية أم ولده إبراهيم . ولا أظن أن قدماء المصريين ضاقوا ذرعًا من الناحية العقائدية بمن غزوهم من هكسوس ويونان ورومان ، واستطاعت جالية يونانية كبيرة أن تستوطن شمال الدلتا على مقربة من الإسكندرية قبل الميلاد ، ومن اليونانيين من يباهى بمصريته إلى اليوم .

ووجدت المسيحية فى مصر منذ عهد مبكر ملجأً ومقرًّا هادئًا ، وعرفت كيف تتآخى مع الإسلام ، واستعان المسلمون بكثير من المسيحيين فى أعمالهم ودواوينهم . وفى القرية المصرية اليوم صورة لتسامح دينى صادق ، « لكم دينكم ولى دين » . فالمسلم والقبطى يتجاوران فى المسكن ، ويتشاركان فى العمل ويتقاسمان السراء والضراء . واستطاعت ثورة سنة ١٩ أن ترد كيد المستعمر الذى عمل على التفرقة بين الطرفين ، وأن تجمع

فى قوة ووضوح بين الصليب والهلال . ولا أنكر أنه قد مرت بنا أزمات ولحظات يرتفع فيها صوت التعصب الدينى ، ويلتف حولها دعاة التفرقة . إلا أنها فى الغالب لا تخلو من مؤثرات خارجية وسموم طائفية ، ولم يعز على الحكماء والعقلاء أن يقضوا عليها ، وتكاد تقتصر دائمًا على المدن وحدها ، وليس شىء أعون على الوحدة الوطنية من العدالة والمساواة بين أبناء الوطن الواحد . ولم يشك يهود مصر فيما مضى من حيف أو جور ، بل بالعكس نعموا بيننا بعيش رضى وحظوا أحيانًا بمراكز سامية ، ثم جاءت إسرائيل وبالاً عليهم ، والصهيونية دون نزاع ضرب من الدعوات العنصرية ، وقديمًا زعم اليهود أنهم شعب الله المختار .

* * *

وكل مواطن فى حاجة إلى لقمة العيش ، وبقدر تمكنه منها واطمئنانه إليها يشتد تعلقه بوطنه . ويرضى المصرى بالقليل عادة ، فإن عز عليه ذلك فلا غرابة فى أن يكفر بالأهل والوطن ، على أنه فى إيمانه بالله أقرب إلى الشكر منه إلى الكفر .

ولا يضن بجهد أو عرق فى سبيل قوته ، ولا يتردد فى أن يرحل من الجنوب إلى الشمال سعيًا وراءه . والوطن ملك لأبنائه جميعًا ، ولابد لهم أن يتقاسموا خيراته ، وواجبنا أن نضع هذا دائمًا نصب أعيننا ، وأن نحسب حساب القاعدة العريضة فى طعامها وشرابها . وقد خطونا فى ذلك خطوات ملحوظة ، ولكنها لاتزال دون الحاجة ، ومن العبث أن نخلق من محرومين مواطنين أوفياء ، وأمر آخر ينبغى أن ننبه إليه ، وهو أن الثروات الكبيرة الطارئة أصبحت غير مستساغة وتثير ما تثير من نقد وتعليق ، بل حقد وحسد . وواجبنا أن نكشف عن مصادرها ، وأن نؤدى حق الوطن فيها . وليس شىء أضر بذوى السلطان من أن يستغل نفوذهم للإثراء والمصلحة الخاصة .

ولأبناء الوطن حق متعادل فى خدماته ، دون تفرقة بين غنى وفقير ، وربما كان الفقير أحوج إلى هذه الخدمات ، ودون تفرقة بين ريف وحضر . وأسوأ الخدمات ما يبدو عليه أنه يتم لحساب خاص ، فيشق طريق باسم زيد أو عمرو ، أو يقام كبرى لعبور أشخاص معينين .

وقد أهملنا خدمات الريف والقرى إهمالاً ملحوظًا ، ولم

يعن بها إلا أخيرًا . واذكر أنه صادفنى على الباخرة فى عودتى من بعثتى عام ٣٥ شاب فرنسى ، ودار بيننا حديث حول مصر وشئونها ، وركبنا القطار سويا من الإسكندرية إلى القاهرة . وكانت ملاحظته الأولى بعد أن ألقى نظرة على ريفنا أن قال أين مصر ؟ ويسعدنى أنى كنت قريبًا كل القرب منذ أربعين سنة مضت من المحاولة الأولى لإنشاء المراكز الاجتماعية فى بعض القرى ، وكانت أربعة فقط . وتلتها مراكز ومجمعات أخرى . ولم يكن شأن الخدمات الصحية أحسن حالا . وهانحن أولاء ننشئ مستشفيات قروية . وأخرى مركزية ، وثالثة فى العواصم والمدن الكبرى . وينتشر التعليم فى الريف والقرى طولاً وعرضًا ، فلا تكاد توجد قرية بدون مدرسة ابتدائية ، وقد تكون إلى جانبها مدارس إعدادية ، وأخرى ثانوية فنية أو عامة ، وأصبح للحكم المحلى وزارة خاصة نعول عليها فى أن تجدد وتنشئ ، وأن تشرف وتراقب .

* * *

وإذا كنا نتحدث عن حقوق المواطن ، فينبغى أن تذكر واجباته ، وعليه أن يعرفها ، وأن يؤديها على وجهها . وليس

ثمة حق لا يقابله واجب ، والواجبات كثيرة يكفى أن نشير إلى أمثلة منها .

وواجب المواطن الأول أن يدافع عن بلاده ، وأن يذود عن حوزته ، وقد علمنا ثلث القرن الماضى فى هذا الشىء الكثير ، وأصبحت الجندية أمرًا نباهى به ، وقد كنا بالأمس نهرب منها . ولم يكن رجل الشارع فى أكتوبر عام ٧٣ أقل استعدادًا للبذل والتضحية من الجندى فى الميدان . وأقبح شىء فى أداء هذا الواجب أن يصاحبه زهو وغرور ، ومحاولات تعد على المواطنين بدلاً من التصدى للأعداء . ومن واجبات المواطن أيضًا أن يبنى وطنه فى المزرعة والمصنع والمتجر ، ولا يمكن بناء وطن بدون إنتاج وافر وسليم ، فعلى المواطن أن يجدد زرعه بحيث يباهى به الزراع داخل الوطن وخارجه ، وأن يتقن صنعته بحيث يقوى على منافسة الصناعات الأجنبية ، وأن يبيع ويشترى فى صدق وأمانة ، ورحم الله رجلاً سمحًا إذا باع وإذا اشترى . ومن واجباته أن يؤمن بأن المال العام ماله ، وعليه حمايته ورعايته ، يحميه إن كان فى يده ، ويرعاه إن كان فى يد غيره . هو أمانة فى أعناقنا جميعًا وأى عدوان عليه خيانة من المعتدى ، وممن يعرف العدوان

ولا يرده . وانقضى زمن الاستعمار الذى ربما أشعرنا بأنا غرباء فى أوطاننا ، وأصبحت الأرض أرضنا ، وخيراتها ملك لنا ، ومن الحمق أن نبددها بأيدينا . ومن واجبات المواطن أن يقدس القانون ، وأن ينزل عنده فلا يتلاعب به ، ولا يتحايل عليه ، ولا يستخدمه فى غير موضعه . وعليه أن ينزل عند حكمه وإن كان جائرا فى نظره ، ولتعديل القوانين سبل معروفة غير التحايل والتهرب منها .

* * *

واجبات وواجبات ، ولا أظن أن مواطنًا حقًّا يجهلها . والمهم أن نؤمن بها ، وأن نقدسها باسم الأمة والوطن .

٩ ـ الإنسان المصرى والعالم الخارجى

لمصر ماض مجيد ، وحاضر نرجو له اطراد الازدهار . ولها موقع جغرافى ربطها بالعالم شرقًا وغربًا ، وهى بوجه خاص ذات مركز معروف فى حوض البحر الأبيض المتوسط . وقد سعى إليها الناس من قديم ، ولا يزالون يسعون ، سعوا إليها

غزاة وفاتحين ، أو تجارًا وطلاب رزق . وخرج المصريون بدورهم إلى العالم المحيط بهم فى فتح وغزو ، أو فى كشف وتجارة . ولم يبق فى عالمنا الحاضر قطر ناء ولا مكان بعيد ، وفى بضع ساعات يستطيع المرء أن يصل إلى العالم الجديد أو العالم القديم . ولم تنشط الرحلة والسياحة قط نشاطها الآن ، ولم تختلط الشعوب بالأمس قدر اختلاطها اليوم ، وفى هذا الاختلاط ما يكشف عن جوانب كل شعب ومميزاته . ونتساءل ما هى الصورة التى نبدو عليها أمام العالم الخارجى ؟ ويعنينا أن تكون لائقة وكريمة .

وقد كنا نشكو ، ولعهد غير بعيد ، من الحفاء والحفاة صغارًا وكبارًا ، ودعونا إلى تبرعات لتوفير أحذية لهؤلاء الحفاة ، ومنحت ألقاب تشريف لمن أسهموا فى هذه التبرعات ، وإن كنا لا نعلم بدقة أين ذهبت . ومهما يكن من أمر فإن الحفاء فى مدننا اختفى أو كاد ، وضاقت دائرته فى القرية ، ونرجو لها أن تبرأ منه تمامًا .ولا يزال زينا يستلفت النظر ، فهو متعدد ومتباين ، فيه قديم وحديث ، سهل ومعقد ، ولا يعبر عن مظهر من مظاهر الوحدة القومية . وفى ثورة سنة ١٩ اتجهنا نحو توحيده ، وقامت بذلك دعوة صريحة ،

ولكنها فيما يظهر لم تكن قوية بدرجة كافية ، ولم تتوفر لها الأسباب ، ولم يمنحها القادة والزعماء ما تستحق من رعاية . ولاشك فى أنا نسير نحو التقارب والتلاق فى زينا ، وربما كانت المرأة ، والمرأة العاملة ، أسرع خطى فى هذا السبيل ، وأعتقد أنا واصلون فى النهاية . ويكفى أن أشير إلى غطاء الرأس ، وقد ضقنا به ذرعًا . وانتهينا فيه إلى حل هو أقرب إلى السلب منه إلى الإيجاب . فألغيناه وأخذنا بعرى رءوسنا ، وانتشر ذلك فى سرعة ملحوظة . وفى وسعنا عن طريق الملابس الجاهزة ، وهى فى تقديرى ملابس المستقبل ، أن نصل إلى وحدة الزى المنشودة إن فى القرية أو فى المدينة ، ويستطيع الزى المدرسى والجامعى أن يعاون فى ذلك معاونة صادقة ، إن درس دراسة صالحة .

وأمر آخر طال فيه الحديث ، وعقدت الندوات ، ووضعت من أجله بعض الأوامر والتعليمات . وهو موضوع النظافة ، وأعنى به نظافة الأشخاص والأشياء ، نظافة الأماكن والشوارع . وربما كانت الحياة الريفية لا تخلو من أوساخ وقاذورات ، والعناية فيها بالنظافة ناقصة أو معدومة . ولكن كيف نقبل وساخة المدن وفيها أجهزة خاصة بالنظافة ،

ولدى القائمين عليها وسائل شتى لأداء مهمتهم ، وأخشى ما أخشاه ألا يكون لديهم حس النظافة كاملاً . وهو حس يتكون منذ النشأة ، وهناك أناس توفرت عندهم وسائل النظافة ولا يعنون بها . والواقع أن النظافة عادة وتربية ، ولابد أن يربى عليها الصغار ويؤخذ بها الكبار ، وفى منزل قذر ليس من السهل أن ننشئ طفلاً نظيفًا . وعلينا أن نتقى فى مدننا كل ما يحول دون النظافة ، من تكدس مواد البناء ، أو انكسار ماسورة المياه ، أو انفجار المجارى . ومن الظلم أن نلقى عبء الوساخة على عمال النظافة وحدهم . فالجماهير وعامة الشعب هم المسئولون الأول ، ولو كرهوا الوساخة لاتقوها وأزالوها . ونحن نريد فى اختصار أن نباهى أمام ضيوفنا وزوارنا بنظافة مدننا ، وهناك قرى فى بلاد أخرى زرناها وعشنا فيها ، وهى فى غير تردد أنظف من مدننا . والسبيل الوحيد لتحقيق النظافة هو أن نشعر بها ونؤمن بأن الوساخة عيب وشىء قبيح .

وأمر ثان يتصل بالنظافة ، وهو النظام والتنسيق والترتيب . تنسيق فى أشخاصنا ومظاهرنا ، تنسيق فى أقوالنا وأفعالنا ، تنسيق فى بيوتنا ومكاتبنا ، تنسيق فى أبنيتنا وشوارعنا ، تنسيق فى معاهدنا ومتاحفنا ، تنسيق فى أنديتنا

ومتنزهاتنا ، تنسيق فى معروضاتنا ومبيعاتنا . وأقولها فى صراحة : إن التنسيق والترتيب ينقصاننا فى كل شىء ، وكأنما فطرنا على الفوضى « والهرجلة » ، فوضى فى القول، وفوضى فى العمل ، فوضى فى السير فى الشوارع ، وسياراتنا وقادتها أوضح مثل على ذلك ، فوضى فى المواعيد فلا نرتبط بها ولا نحسب لها حسابًا ، وفوضى فى الوقت مع أنا نعيش فى عصر يكاد يقاس كل شىء فيه بالزمن . ربما كان هناك أناس يعشقون الفوضى ، يلتقون عندها ، ويستريحون إليها ، ويزعمون مثلاً أنهم فنانون ، ولهم شأنهم . أما أن تمتد فوضاهم إلى المجتمع والنظام العام فهذا ما لا نقبله بحال ، ويجب محاربته أينما كان . ولست فى حاجة أن أشير إلى أن زوارنا وضيوفنا يدركون هذه الفوضى ويسجلونها علينا ، فهل آن الأوان لأن نخجل منها ونقضى عليها .

ويتصل بهذه الفوضى الجلبة والضوضاء اللذان ابتلينا بهما ، فنصرخ فى غير ما داع ، ونتفنن فى المناداة على سلعنا بأعلى صوت ، ونطلق الكلكسون بغير حساب . وقد نتلاعب به . أما أجهزة الإذاعة فى المقهى والمنزل فمبعث قلق دائم لمن ينشدون شيئًا من الراحة ، وكثيرًا ما تعلو أصواتها ولا من

يستمع إليها . ويظهر أن حاسة السمع عندنا فى حاجة ماسة إلى تربية خاصة وتعوُّد على الأصوات الهادئة ، وفى هذا حماية وحفظ لها . وأذكر أن دراسة ، قام بها بعض المتخصصين من أطبائنا فى أماكن نائية من السودان حيث لا جلبة ولا ضوضاء ، أثبتت أن حاسة السمع هناك أحد وأدق .

ولابد لى أن أشير إلى أخطاء فاحشة نقع فيها أحيانًا فى معاملتنا للسائحين والأجانب بوجه عام ، فنكذب فى غير ما داع ، ونسرف ونبالغ ، ونضلل ونغالط ، ونحاول استغلالاً لا مبرر له ، وقد ندبر احتيالات ونرتكب سرقات . والغريب كما يقولون ، أعمى ولو كان بصيرًا ، وهو أميل إلى التسليم والتصديق ، ويرحب بكل معاونة مخلصة . وأدع جانبا طلب «البقشيش» ، وأرجو أن نكون قد انصرفنا عنه . وأحذر من الألفاظ النابية والعبارات الساقطة التى قد لا يفهمها أجنبى ، ولكنه لا يتردد فى البحث عن معناها . ومما يؤسف له أن هذه الألفاظ كثيرة الورود بيننا ، وهى عنوان تربية سوقية ساقطة . والسائح أو الأجنبى عين ترى ، وأذن تسمع ، وكثيرًا ما سجل غريب الألفاظ ، أو أخذ صورة لأقبح المناظر . ولا يتردد فى أن ينقل إلى بلده كل ما رأى وسمع ، فهل يرضينا أن تنقل هذه الصور عنا ؟

هذه هى صلة المصرى بالعالم الخارجى يوم أن ينتقل إليه . وقد يسعى هو إلى الخارج سائحًا أو زائرًا . أو طالبًا لمال أو علم . وكان لنا فى الماضى قلة من الزوار احتفظوا لبلدهم بسمعة طيبة ، ومثلوها تمثيلاً كريمًا . أما اليوم فقد كثر العدد . واتسع الخرق على الراقع . وأنا لا أرفض رحلة شبابنا إلى أوروبا أثناء الصيف رغبة فى اكتساب خبرة أو حصول على مال . ولكنى أريد لها أن تنظم وأن ترعى فيها كرامة الوطن والمواطنين . وقد رأيت منها أمثلة لا داعى إلى سردها . ولنا أطباء ومهندسون ، وأساتذة ومدرسون يعملون فى الخارج . وأدعوهم إلى ألا يتنكروا لوطنهم ، وألا يكونوا حربًا على أنفسهم . ومما يحز فى النفس أن ترى جاليات أخرى متعاونة متساندة . فى حين أن الجالية المصرية لا تخلو من تحاسد وتنافر ، وقد قالوا من قديم : «إن الغريب للغريب نسيب» . وإذا كانت لنا عورة فأولى بنا أن نداريها . ومما يؤسف له أن عمالنا فى الخارج ربما كانوا أشد تماسكًا من مثقفينا .

* * *

إن الحديث عن بناء الإنسان المصرى طويل . وقد وقفت عليه تسعة أحاديث ، ولا أزعم مطلقًا أنى قلت فيه كل

ما ينبغى . ونحن ندرك أن بناء طفل واحد وتكوينه تكوينًا سليمًا ليس بالأمر الهين ، فكيف ببناء أبناء أمة بأسرها ؟ إن هذا يتطلب جهدًا متواصلاً من الشعب والدولة ، وواجبنا جميعًا أن نأخذ أنفسنا به ، وألا نتهاون فيه ، فنقوِّم كل معوج ، ونحارب كل فاسد . ونصيب الأم والأب بخاصة من بنيان الإنسان المصرى جد كبير ، وكلى رجاء أن يكونا أهلاً لهذه الرسالة الجليلة . وإلى لقاء قريب فى مشكلة أخرى من مشاكلنا الثقافية والاجتماعية ، وما أكثرها .

الحلقة الثالثة

بين القديم والجديد

١ ـ بين القديم والجديد

أحب أن أتحدث الليلة عن موضوع كثر فيه الأخذ والرد . وتبادل الناس فيه المعارضة والتأييد . وأصبحنا نحس إزاءه بشيء من القلق والحيرة . وأعنى به موضوع الجديد والقديم . ومن الغريب أن هذا التقابل ليس من المستحدثات ولا من مبتكرات هذا العصر . بل هو سنة من سنن الحياة . عاش فيه أباؤنا وأجدادنا بل عاشت فيه البشرية كلها منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها . ولكل مطلع شمس جديدة حسًّا ومعنى . جديد فيما خلق الله من كائنات . وجديد فيما نكشف عنه فى هذا الكون من عجائب وأسرار . جديد فيما نقوم به من خيرات وحسنات . وجديد فيما نرتكب من معاصى وسيئات . وبجانب هذا الجديد قديم ورثناه واستمسكنا به . وقد لا ندرى كيف ولا متى ورثناه . هو جزء منا نستجيب له ونهتدى بهديه . نستمع له ونتبع خطاه . وقد نحاول التخلص منه . ولكننا لا نلبث أن نخضع لسلطانه . ومن الخطأ أن نزعم أن فى وسعنا

أن نبدله فى يوم وليلة . وللثورات ادعاؤها المغرور فى هذا الباب . فهى تزعم دائمًا أن فى وسعها أن تستأصل الماضى كله . وأن تمسحه مسحًا . وأن تحل محله جديدًا لا صلة له بالقديم فى شىء . وربما طال بها هذا الغرور زمنًا . ثم ينتهى بها المطاف إلى التسليم بأن هناك مقدسات لا سبيل إلى إنكارها . وأن هناك ميراثًا من العادات والتقاليد . وثروة من القيم والمبادئ نخسر كل الخسارة إن أنكرناها أو تنكرنا لها .

إذا كان هذا هو الموقف بالنسبة للجديد والقديم . ففيم الحيرة ولم القلق إذن؟ أخشى ما أخشاه أن يكون الجديد قد اشتد طوفانه . وهل فى هذا ما يزعجنا إن كانت لنا قدرة على المقاومة . وحكمة نختار بها السليم والأصلح . ونتقى بها السئ والخبيث . ولا نزاع فى أن فى الجديد الصالح والنافع . وفيه الضار والهدام . والأمر بأيدينا نحن وبما يتوفر لنا من حسن تقدير وملكة اختيار . ومعارضة الجديد لمجرد أنه جديد عبث . ووقوف فى طريق السير . والحياة سائرة لا محالة . وواجبنا أن نتسلح لها وأن نواجه خيرها وشرها . ولا أرضى مطلقًا أن تضعف ثقتنا بأنفسنا . فنرفض لمجرد الرفض أو نتحايل ونتهرب . وأقبح من هذا أن نتستر وراء آبائنا وأجدادنا .

لنقول إنهم لم يعرفوا هذا أو أنهم لم يقولوا به . وأين هم حتى نحكمهم فى أمور لا صلة لهم بها ولو أدركوها لوقفوا منها موقفاً آخر . ولهم فى الماضى مواقف جليلة ومشهودة إزاء الجديد والغريب .

وأمر آخر أخشاه . ولخشيتى ما يبررها . ألا وهو أن احترامنا للقديم يضعف واستمساكنا به يقل . وأنا لا أنكر أن فى القديم خرافاته وخزعبلاته . وأن له أخطاءه وسيئاته . وفيه بوجه خاص ما لا يتمشى مع روح العصر وما لا يستجيب لمتطلباته . ولكن هل معنى هذا أن كل قديم قبيح . وهل معناه أن كل قديم مرفوض ؟ كلا وألف مرة كلا . للقديم قيمه ومبادئه . وما أجدرنا أن نستمسك بها ونحرص عليها . إن من بهرهم الجديد ببريقه ولمعانه تنكروا لها ، فوقعوا فى حيرة وبلبلة . وأحسوا بفقر أخلاقى واجتماعى ، برغم غناهم المادى . فى قديمنا عطف وشفقة ما أحوجنا إليهما ، عطف على الضعيف والصغير ، وشفقة على الفقير والمحتاج ، عطف وشفقة ينبعثان من القلب ويعبران عن ضمير حى . وما أحوجنا إلى ذلك فى عالم تحجرت فيه القلوب وماتت الضمائر . وفى ماضينا احترام للكبار وطاعة لأولى الأمر .

والسمع والطاعة حق على المرء المؤمن فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة عليه . فهل نحظى فى أجيالنا الشابة بذلك الاحترام الذى كنا نحس به ونلمسه فى أجيالنا السابقة . وهل كلمتا السمع والطاعة محببتان إلى شبابنا كما كانتا محببتين إلى شيوخنا ؟ وهل الإيمان بالواجب يملأ قلوبنا كما يملأ قلوب آبائنا وأجدادنا ؟ وفى القديم حياء واستحياء كانت تحمر لهما الوجوه وتستر العورات ، وإذا بهما قد تبدلا إلى وجوه مكشوفة ، وتحولا إلى شىء من الفجور واللامبالاة ، إن فى قديمنا قيمًا كثيرة لا أستطيع أن أدخل الآن فى تفاصيلها ، ولكنى أحب أن أشير فقط إلى أن حضارات أخرى حرمت منها فضلت وأضلت . ولا ألقى وزر ازدراء القديم على الشباب وحده ، بل لابد لى أن أقرر أن الشيوخ والآباء قصروا فى أداء رسالتهم ، وكان عليهم أن يغرسوا فى أبنائهم احترام الصالح من تراثنا . وحبه والاستمساك به .

* * *

لابد لى أن أشير أخيرًا إلى أمر له شأنه فى الصراع بين القديم والجديد ، ألا وهو أن هذا الصراع يتطلب قيادة فكرية

وروحية حكيمة وحازمة . وما أشد حاجتنا إلى هذه القيادة . ولكنا لا نريد لها أن تتحول إلى حزبية وطائفية ، أو إلى محافظين ومجددين ، أو إلى يمين ويسار . وإنما نريد بها أن نلتقى عند كلمة سواء تحمى بها القديم الصالح من الانهيار ، وتحول دون الجديد الضار من الانتشار . نريد لها أن تعيش فى عصرها ، وأن تتسع آفاقها ، وأن تجد الشجاعة الكافية التى تحق بها الحق ، وتبطل الباطل .. نريد لها أن تسمو عن السفه والمهاترة ، وأن نفرغ فى جد لدراسة أدوائنا الخلقية والاجتماعية ، وأن نتطلب لها فى رفق وحكمة . إنها إن فعلت رسمت الطريق واضحًا ، وقربت مسافة الخلف بين الشباب والشيوخ ، بين المجددين والمحافظين . هذه هى رسالتها ، وعليها أن تؤديها على وجهها .

٢ ـ التجديد فى الإسلام

سأحدثكم الليلة عن التجديد فى الإسلام ، ونخطئ كل الخطأ إن زعمنا أن الإسلام يرفض الجديد أو لا يرحب به . نخطئ حقًّا لأن الإسلام نفسه دعوة جديدة جاءت لتهدم الوثنية وتقضى عليها ، وشاءت أيضًا أن تكشف عن بعض ما أدخل على التوراة والإنجيل من تحريف أو تعديل . والإسلام عقيدة سهلة ميسرة تقرر أن الله واحد ، وأن محمدًا رسوله . وعباداته واضحة محددة ومحصورة ، ومعاملاته تخضع لسنن الحياة والتطور . وكتابه المنزل عربى مبين ، وذكر حكيم ، شاء الله أن يقف به عند المبادئ العامة والأصول المقررة . فلم يفلسف العقيدة على نحو ما صنع المتكلمون فيما بعد . وفلسفتهم هذه ولاشك أمر جديد لم يعرفه الصحابة ولا التابعون ، ولم ينكره إلا نفر قليل ممن جاءوا بعدهم من الدارسين والباحثين ، ولا تزال هذه الفلسفة تدرس حتى اليوم ، وهى على كل حال لم تزعزع عقيدة المؤمنين فى شىء .

ولم يعرض القرآن للعبادات إلا فى صورة أوامر عامة ومجملة . فأمر بالصلاة ودعا إلى وجوب أدائها فى أوقاتها . ولكنه لم يحدد عددها ، ولم يبين أركانها ، ولم يفرق بين فروضها ونوافلها . وترك ذلك كله لفعل النبى وقوله ، وجاء الصحابة والتابعون فشرحوا هذا الفعل ووضحوا هذا القول . وأفسحوا المجال للأئمة والفقهاء ، فشرعوا ما شرعوا ، وأفتوا بما أفتوا . وكانت إضافاتهم جزءًا هامًا ومتممًا لمعالم الدين . ولا تختلف الزكاة والصيام والحج عن ذلك كثيرًا ، وهى مكملات أركان الإسلام . أجمل القرآن الحديث عنها ، وترك للسنة تفصيل القول فيها . ونحن نعلم أن الصوم لم يفرض إلا فى العام الثانى للهجرة ، وهذا تدرج فى التشريع له حكمته . والراجح أن الزكاة فرضت أيضًا فى هذا العام نفسه ، وإن قيل إنها لم تفرض إلا فى العام التاسع . ولم يحج النبى صلى الله عليه وسلم إلا حجة واحدة هى حجة الوداع . ورحم الله أبا بكر الذى حارب المرتدين من أجل الزكاة ، ولم يسمح بأن يفرط فى عقال بعير . ورحم الله عمر بن الخطاب الذى رسم لبيت مال المسلمين حدوده . ومعالمه ووضع المبادئ الكبرى لعلم المالية فى الإسلام . وتتابع الصحابة والتابعون فى تحديد معالم هذه العبادات . وسار على نهجهم أصحاب المذاهب والفقهاء .

ففرقوا بين الصيام الواجب والمندوب ، وبين الزكاة والصدقة . وحددوا الأموال التى تجب فيها الزكاة ، والأنصبة التى يستحق الدفع عنها ، والنسب التى تؤخذ منها . ورسموا للحج والعمرة مناسكهما ، وبينوا طريقة السير فى أدائهما . واستكملت العبادات تشريعها فى هدى الكتاب والسنة . وفى ضوء فهم الباحثين والمقننين . وحسن تقديرهم وسلامة حكمهم . وكل تلك إضافات جديدة لم يجد المسلمون أية غضاضة فى القول بها . بل بالعكس رأوا من واجبهم أن يستكملوها .

والأمر فى المعاملات أفسح وأيسر لأنها من شئون الدنيا . وقد مر النبى صلى الله عليه وسلم بقوم يأبرون النخل (أى يلقحونه) فترك لهم معالجة ذلك على نحو ما يعرفون . وقال كلمته المشهورة : «ما كان من أمر دينكم فإلى» . وما كان من أمر دنياكم فإليكم» . والمعاملات فى الواقع فى تطور مستمر . وكم جدت فيها ألوان لم تكن معروفة من قبل . وظهرت صور وأشكال لم تكن معهودة . ومن ذا الذى يزعم أن تعامل المسلمين بعد الغزو والفتح . وبعد انتشار الإسلام شرقًا وغربًا . بقى كما هو عند الحدود التى عرفت فى مكة والمدينة . وكان لابدّ لمفكرى الإسلام ومشرعيه أن يواجهوا

ذلك ، وأن يعدوا له عدته . فوضعوا فى التشريع مناهج ومبادئ واضحة ، وشرعوا لكل جديد طرأ عليهم . وفى كتبنا الفقهية القديمة مادة غزيرة يمكن أن تكون أساسًا لوضع قانون مدنى وآخر تجارى ، ولا ضير مطلقًا فى أن نفيد من تجارب غيرنا إن كان فيها ما يلائمنا ولا يتعارض مع تعاليمنا . وقديمًا قالوا : شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد فى شرعنا ما يخالفه . وفى أخريات القرن الماضى ، طلب إلى شيوخنا أن يصوغوا تشريعنا صياغة حديثة ، أسوة ببعض ما تم فى تركيا ، ولكنهم استعفوا ولم يؤدوا رسالتهم الواجبة . وكان لابد لنا أن نلجأ إلى وسيلة أخرى ، فأخذنا ما أخذنا عن القوانين الحديثة ، من إنجليزية وألمانية وبخاصة فرنسية ، وعشنا معها ، وبنيت عليها معاملاتنا كلها منذ قرن تقريبًا .

ويظهر أنا بدأنا نحس بقصور الماضى ، وأخذنا نطالب بوضع تشريعات جديدة تعتمد على الفقه القديم وحده . وأتساءل حقًّا هل نحن مغرمون بالهدم والبناء ؟ وهل تعالج الشئون العامة والتقاليد الثابتة على هذا النحو ؟ أليس الأولى بنا أن ننظر فى قوانيننا القائمة ، فما التقى منها مع مبادئ الإسلام أبقيناه وثبتناه ، وما كان مخالفًا عدلناه وأصلحناه . ولا ننسى

أن التشريع يسير دائمًا مع الزمن . ونحن نعيش فى القرن العشرين . فإن تنكرنا له أنكرنا ولا حياة لنا فيه . وعلماء الفقه الإسلامى يدركون جيدًا أن هذا الفقه سار فعلاً مع الزمن ، فلم يخلق فى يوم وليلة ، بل لم يخلق فى جيل بعينه ولا فى مدرسة واحدة . آمن رجاله بأنهم قادرون على فهم مبادئ الإسلام ، وأنهم مكلفون بتطبيقها ، ففتحوا باب الاجتهاد على مصراعيه ، وجاءوا بحلول عملية ، وما فاتهم لابد لنا أن نتداركه .

* * *

أظن أنه لا محل ، بعد ما قدمت ، أن ننكر التجديد فى الإسلام ، وأصارحكم بأن من يلجأون إلى هذا الإنكار يسيئون إلى أنفسهم بدرجة لا تقل عن إساءتهم لدينهم . يسيئون إلى أنفسهم لأنهم يعطلون ما وهبهم الله من عقل وتفكير ، ويقضون على ما سلم به الإسلام من حرية الفكر والاختيار . وكيف ننكر التجديد ، وقد أخذ به أسلافنا وأضافوا ما أضافوا – أو ليس صنع عمر بن الخطاب الإدارى والحضارى تجديدًا نعتز به ونعوّل عليه ، ثم توالى بعده

المجددون والمصلحون . وقد قيل إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَن يجدد لها أمور دينها ، وأنا لا أقف شخصيًّا عند هذا التحديد الزمنى بل أنا مع من يقول : إن الخير فى وفى أمتى إلى يوم القيامة . وفى وسعنا أن نجدد ونبتكر متى استكملنا وسائل البحث والدرس ، ولا يطلب منا إلا أن نقف عند معالم الإسلام وحدوده الكبرى ولم يتردد أسلافنا وفقهاؤنا فى أن يسيروا ويجددوا ، ولا ضير على المرء فى أن يعدل عن رأى رآه بالأمس إن تبين له خطؤه اليوم . ونحن نعلم أن للشافعى مذهبًا قديمًا وآخر جديدًا ، ولم يتفق أصحاب أبى حنيفة معه فى كل ما انتهى إليه . لنثق بأنفسنا ، ولنساير عصرنا دون زيغ أو انحراف وإلا رمينا بالتأخر والجمود .

٣ـ نهضتنا الحديثة

أختم هذه السلسلة القصيرة بكلمة عن نهضتنا الحديثة . ولست فى حاجة أن أشير إلى أنا عشنا فى ظلمة شبه حالكة زمنًا طويلاً ، مدة خمسة قرون ، من القرن الرابع عشر الميلادى .

إلى القرن الثامن عشر. فلا إنتاج يعتد به فكريًّا وأدبيًّا، ولا ازدهار ننعم به اقتصاديًّا واجتماعيًّا، ولا تجديد ولا ابتكار. ثم جاءت الحملة الفرنسية فألهبت شعورنا وأججت حماسنا، وبعثت فينا حياة جديدة. وتلاها محمد على وهو مجرد جندى أو قائد عسكرى من قوله، ولكن تفتحت عيناه على حضارة الدنيا، وقدر له أن يتولى أمر مصر نحو أربعين سنة. وبرغم أنه بلى بحروب كثيرة ومضنية، فإنه يعد بحق واضع أول لبنة فى نهضتنا المعاصرة فى جوانبها الاقتصادية والعمرانية والثقافية. فأنشأ ما أنشأ من مصانع، وأقام ما أقام من قناطر وجسور. وأسس مدارس الطب والهندسة والصيدلة إلى جانب المدارس الحربية، وأوفد إلى أوروبا، وإلى فرنسا بخاصة، بعثات متتالية، وكانت أولاها عام ١٨٢٦، واشتملت على نحو ٤٠ طالبًا لدراسة الرياضة والهندسة والطب والعلوم الصناعية.

ومن هؤلاء نشأ الرعيل الأول من دعاة النهوض والإصلاح. ونذكر من بينهم أولاً رفاعة الطهطاوى (١٨٧٢) الذى جمع بين القديم والجديد، تخرج فى الأزهر، ثم سافر إلى فرنسا إمامًا للبعثة الأولى التى أرسلها محمد على. والتى أشرنا

إليها من قبل . ثم عاد إلى بلاده فكان شيخ المترجمين ، وأول مؤسس للصحافة المصرية الرسمية . وإلى جانب ما خرَّج من تلاميذ وأعوان ، حاول أن يقدم صورًا حية من الحضارة الأوروبية ، تفتح الآفاق وتقدم بعض النماذج العملية . ويمكن أن نضيف إليه معاصرًا آخر له شأن فى ربط القديم بالجديد ، وهو على مبارك (١٨٩٣) الذى تخرج فى مدرسة المهندسخانة ، ثم سافر فى بعثة إلى فرنسا . وبعد عودته اضطلع بأعباء مختلفة ، أهمها ديوان الأشغال وديوان المدارس ، وهو الذى أنشأ دار الكتب ودار العلوم . ومن طريف ما كتب روايته : «علم الدين» التى ترمى إلى الملاءمة بين القديم والجديد وتقوم على مسامرات بين شيخ أزهرى ومستشرق إنجليزى يطوفان أوروبا معًا .

ولاشك فى أن ربط الجديد بالقديم توثقت عراه فى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن على أيدى جمال الدين الأفغانى (١٨٩٨) ، ومحمد عبده (١٩٠٥) . وقد فهما معًا القديم حق الفهم ، وقبلا من الجديد ما لا ضير فيه ولا غبار عليه . كانا يتخذان من أنفسهما وآرائهما قدوة عملية ، فكانا يجهران بدعوتهما ، ولا يخشيان فى الحق لومة لائم . وقد حوربا

وطوردا ، ولكن دعوتهما أخذت طريقها ، وآتت ثمارها . فاستطاع جمال الدين بمقالاته المشتعلة ، وبأحاديثه وسمره فى الأندية والمقاهى أن يخلق وعيًا جديدًا ، وأن يبعث شعورًا قويًّا . واستطاع محمد عبده بدروسه فى الرواق العباسى ، وبمقالاته ومؤلفاته أن يرسم منهجًا جديدًا فى البحث الإسلامى ، لا يسلم بكل قديم لأنه قديم ، ولا يقبل من الجديد إلا ما طابت له نفسه ويتلاءم مع مبادئ الإسلام . رفع راية حرية البحث ، وضرب مثلاً رائعًا فى الاجتهاد وإصدار الأحكام . حارب البدع والخرافات ، واستنكر تفريعات الفقهاء الخيالية . وفق بين العقل والنقل ، ونادى بالتسامح الدينى والتقارب بين مختلف الشعوب . ودعا إلى إنشاء مدرسة القضاء الشرعى لكى تطبق منهجه وتجمع بين القديم والحديث ، ولو قدر لها أن تبقى إلى اليوم لصارت نموذجًا يحتذى فى بلاد إسلامية كثيرة .

تخرج على يدى هذين المصلحين دعاة وقادة كثيرون كانوا مشعل النور وحملة رسالة النهوض والتقدم فى النصف الأول من هذا القرن . وأدع جانبًا لطفى السيد ومدرسته ، لأنى أخشى أن يقال إن هؤلاء كانوا ألصق بالغرب وأميل إلى

الجديد . وأحرص على أن أقدم نماذج من البيئة الدينية والنشأة الأزهرية . وفي مقدمتهم محمد مصطفى المراغى (١٩٤٥) الذى تتلمذ للأستاذ الإمام ، وأشرب بروحه ، وخطا خطوات فسيحة فى سبيل إصلاح القضاء الشرعى والنهوض به . ونظر إلى الفقه الإسلامى نظرة شاملة ، واختار منه ما يسد حاجات العصر ويحقق التيسير المنشود ، دون تقيد بمذهب معين . وكان له فى أخريات حياته دروس دينية تعد نموذجًا للفكر المستنير ، ومثلاً رائعًا لمواجهة حاجات العصر ومتطلباته . ومن معاصريه تلميذ آخر ربما كان أقرب إلى محمد عبده وألصق به ، وأعنى به مصطفى عبد الرازق (١٩٤٧) ، وقد تخرج هو أيضًا فى الأزهر ، ثم سافر إلى فرنسا . وقضى فيها زمنًا . ويوم أن عاد إلى مصر وكل إليه شىء من شئون الأزهر ومجلسه الأعلى ، ثم اضطلع بأعباء أخرى ، وانتهى به المطاف أن أصبح شيخًا للأزهر فى أخريات حياته ، فكان واحدًا من القيادات الأدبية والفكرية ، والسياسية والاجتماعية . وينحو فى إصلاحه منحى الرفق والأناة ، والإخاء والمساواة . وفق بين الفلسفة والدين ، ولاحظ بحق أن الفقه الإسلامى لم يخل من دعامات فلسفية . وحياته فى اختصار صورة جذابة للمسلم المصرى المعاصر .

لا أشك فى أنا نلاحظ أن نهضتنا الحديثة قامت على دعامة قوية من القديم والجديد . فعرفنا كيف نلائم بينهما فى حكمة واتزان . وسرنا فى طريقنا فى غير ما تعثر ولا طفرة . صفينا القديم مما لصق به من رواسب وشوائب . وأضفنا إليه جديدًا يدعو إلى النهوض والحركة . ويقدس القيم والمثل . وقد حظينا بقيادات روحية وفكرية لها وزنها . عرفت الداء وأعدت له الدواء . أحسنت التوجيه . ورسمت سبل الإرشاد والتفاهم . وأخشى ما أخشاه أن تعوزنا هذه القيادات اليوم . فبلينا فى ربع القرن الأخير بنكسة لم يعرف أنصار القديم فيها إلا التشبث بأشباح باليه. وبجموح أنصار الجديد وانحرافهم إلى الغلو والإسراف . فأنكروا قيمهم . واستهانوا بمقدساتهم وربما يكون كأس الجديد قد طفح بعض الشىء . وربما كانت وراءه دسائس محكمة ودعايات هدامة . ولكن من العبث أن نواجهه بجمود قاتل ومحافظة فاشلة . وهل من سبيل إلى إحياء الموتى . أو من أمل فى العودة إلى الوراء ؟

لنطرح إذن ما اطرحناه سلفًا من قديم بال . ولنستمسك فقط بالمبادئ والقيم . وقد اتسع صدر الإسلام لكل جديد . بعد أن هذبه وطوره حتى أصبح ملائمًا لروحه ومبادئه . فهل تقوى قياداتنا الفكرية والروحية على ذلك؟ هذا ما نتمناه .

الفهرس

رقم الإيداع ١٨٦٠/٨١

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى هاتف : ٧٥٤٣١٤ برقيا : شروق القاهرة - تلكس : 93091 SHROK UN

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

To: www.al-mostafa.com